الفصل الثاني

مؤلفات ابن حَيَّان

(التصنيف والمحتوى)

- مؤلفات ابن حَيَّان .
- محتوى مصنفات ابن حَيَّان .
  - الجوانب السياسية والدبلوماسية.
  - الجوانب الاقتصادية والإدارية.
  - الجوانب الاجتماعية والثقافية.

obeikandl.com

obeikandl.com

تكشف دراسة أعمال المؤرخين والمفكرين الرواد عن وجود رؤى وتصورات وقواعد استنبطوها من خلال الاشتغال بالتاريخ بحيث يمكن القول بأن كل مؤرخ كان لديه مفهوم عن " **فكرة التاريخ** " انعكس تأثيره علي ما كتب وصنف من أعمال "[1]؛ ونتيجة لظروف العصر وتمتع ابن حَيَّان بثقافة واسعة، انعكس ذلك على الموضوعات التي تناولها، وقد تضمنت كتاباته أخباراً كثيرة، واشتملت على جوانب عديدة، سياسية، واقتصادية، واجتماعية، وثقافية. وكتبه في هذا المجال هي: **"المقتبس"**، و**"المتين"** و**"أخبار الدولة العامرية"**، و**"البطشة الكبرى"**، ومجموع هذه الكتب يشكل ما يطلق عليه اسم " **التاريخ الكبير**" لابن حَيَّان.

وهناك ملاحظات عدة حول كتب ابن حَيَّان منها: أنه: " **أرخ للعدوتين**[2] **تأريخا شاملاً مؤسساً على الاهتمام بالأخبار بالدرجة الأولى**[3] خاصة في كتابه "المقتبس"، ولم يحاول لسبب أو لآخر أن يكتب في تاريخ أي قطر من أقطار العالم الإسلامي.

والملاحظة الأخرى أنه ركّز بصفة خاصة على قُرْطُبَة التي كان يعتد بها أشد الاعتداد، متخذاً من ولاءه لبني أُمَيّة منطلقاً أساسياً في كتاباته؛ مما أدى ذلك إلى تسفيه خصومهم في الداخل والخارج[4].

وثمة ملاحظة أخرى وهي أنه: في كتابه " المقتبس " **مؤرخ أخبار** " بالدرجة

---

(١) سوسيولوجيا، مرجع سابق، ص ٢٩١.
(٢) أى المغرب والأندلس.
(٣) الفكر التاريخى، مرجع سابق، ص ٩٩.
(٤) نفسه، ص١٠٠.

الأولى، جمع فيه بين الرواية والدراية؛ لكنها دراية تكمن فقط في تحقيق الروايات ليس إلا[1]؛ فهو في جملته يعتمد على المدونات التاريخية السابقة وعنوان الكتاب " **المقتبس** " خير دليل على ذلك؛ أما في المتين فالوضع اختلف تمام الاختلاف، فهو تسجيل للتاريخ المعاصر الذي يعيشه المؤلف، وكان لذلك لا يلتزم الرجوع إلى الكتب، وإنما احتاج إلى تقصي الأخبار من مصادر أخرى، كما وجدناه ناقداً موضوعياً في حالات عدة – سنعرض لها بالتفصيل عند الحديث عن الموضوعية في كتاباته ، وسوف نتعرض لأعمال ابن حَيَّان؛ ثم نقوم بتقديم تحليلاً لمحتواها فيما يلي:

أولاً: المقتبس:

يعد من أشمل الكتب التي أرخت للأندلس خلال القرون الثلاثة من تاريخ الإسلام فيها[2]، ويؤكد ذلك ابن حَيَّان بقوله عن كتاباته التاريخية: " **وبعد فإني امرؤ يسرت لطلب هذا الخبر واقتفاء هذا الأثر، أحرس شارده وأقيد نافره فشغلت به دهرا وفجرت منه نهرا، أقص أنباءه، وأضرب أمثاله، وأحصي وقائعه، وأحترز مواعظه** [3]"، ويقول عنه ابن خلدون أنه: " **قَيَّد شوارد عصره واستوعب أخبار أفقه وقطره**"[4]، وكان المقتبس من بين الكتب التي افتخر بها ابن حَزْم في رسالته في فضل الأندلس، إذ يقول: " **ومنها كتاب التاريخ الكبير في أخبار أهل الأندلس تأليف أبي مروان بن حيان، نحو عشرة أسفار، من أَجَّل كتاب أُلف في هذا المعنى**[5]، وأشار إليه أيضاً

---

(١) نفسه، ص ٩٦.

(٢) ومع ذلك فقد ظل كنزاً مخبوءاً لزمن طويل، حتى كان " اكتشافه " على يد العلامة الهولندى راينهارت دوزي، صاحب أول جهد علمى حقيقى فى كتابه تاريخ الأندلس وتبعه المستشرق الإسبانى فرانسيسكو كوديرا الذى يعد مؤسس الاستشراق الحديث فى إسبانيا.

(٣) الذخيرة: (تحقيق البدري)، ج ١، ص ٣٥٨، نقلا عن ابن حَيَّان.

(٤) ابن خلدون: المقدمة. تحقيق حامد احمد الطاهر ط١، دار الفجر، القاهرة ٢٠٠٤، ص ١٤.

(٥) ابن حزم: رسائل ابن حزم، مرجع سابق، ج٢، ص ١٨٤.

الشَّقْندي[1] فى رسالته فى الدفاع عن الأندلس بقوله: " **وهل لكم فى علم التاريخ كابن حَيَّان صاحب " المتين " والمقتبس** "[2]؛ وهى شهادة يجمع عليها من اطلعوا على هذا الكتاب، وانتفعوا منه من القدماء، ومن استخدموا مادته من الباحثين المحدثين[3].

والجدير بالذكر أنه ليس هناك إجماع على الاسم الكامل النهائي للكتاب؛ فعنوان القطعة المخطوطة التي نشرها الراهب الإسباني ملتشور أنطونيا في باريس سنة ١٩٣٧ عن أصل محفوظ في المكتبة البودلية بأكسفورد هو: "**المقتبس في تاريخ رجال الأندلس**"؛ بينما عنوان القطعة التي كانت محفوظة في مكتبة ورثة سيدي حمودة بقسنطينة"[4]، والتي استنسخ منها المستشرق الإسباني فرانسيسكو كوديرا المخطوطة المحفوظة في مكتبة المجمع التاريخي الملكي بمدريد هو: " **المقتبس في أخبار بلد الأندلس** "؛ أما ابن الأَبَّار[5] فإنه يذكر الاسم في هذه الصورة: " **المقتبس من أنباء أهل الأندلس** "[6]، وخلاصة الأمر أن الكتاب قد اشتهر باسم "**المقتبس**" فحسب، بل إن الشائع في كتابات المؤرخين عنه هو الحديث عنه باعتباره قسماً من " التاريخ الكبير " لابن حَيَّان.

---

(١) الشَّقْندى أبو الوليد إسماعيل بن محمد (- ٦٢٩) صاحب كتاب اطرف ورسالة مشهورة فى تفضيل الأندلس على بر العُدْوَة، عارض بها أبا يحيى صهر ناصر بنى عبد المؤمن، وقد احتفظ بها المقرى فى النفح فى الباب السابع من القسم الأول، وهذا النص منها مأخوذ على سبيل الاختصار. (انظر ترجمة الشَّقْندى فى المغرب ١ : ٢١٣).

(٢) راجع، المقرى، نفح، ج٣، ص ١٩٣.

(٣) محمود مكى: مقدمة نشرته لجزء من المقتبس، الشطر الأول، مركز الملك فيصل للبحوث، ط ١، المملكة العربية السعودية، ٢٠٠٢، ص ١٥.

(٤) بالجزائر.

(٥) ابن الأَبَّار (ت ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القُضاعىّ ويعرف بابن الأَبَّار مؤرخ وأديب وسياسى أندلسى من قبيلة قضاعة التى استوطنت أُنْدة فى ضواحى بَلَنْسِية. تلقى العلم فى بَلَنْسِية على أبى عبد الله بن نوح، وأبى جعفر الحضّار، وابن واجب، وأبى الحسن بن خَيْرة، وأبى سليمان بن حَوْط، وغيرهم.. واتصل بأبى الربيع بن سالم أكبر محدّث فى عصره ومعنى الأَبَّار: مشذب النخل وملقحه

(٦) الحُلة السِّيَراء ، ج١، مرجع سابق، ص ٢٩٠، ترجمة رقم ١٠٧.

والكتاب في مجمله يعالج تاريخ الأندلس منذ الفتح سنة ٩١ هـ/ ٧١١م وينتهي بنهاية خلافة الحكم المستنصر في سنة ٣٦٦ هـ/ ٩٧٦ م[١]. والمادة التي يقدمها ابن حَيَّان فيه – باعتراف المؤرخين المحدثين – تفوق كل ما كُتب بعده من التواريخ المغربية والأندلسية سواء من حيث الوفرة، أم التنوع، أم الرجوع إلى كتب التواريخ التى سبقته، وهنا تكمن أهمية كتابه خاصة وأنه يتضمن أخباراً وفيرة، وروايات ووثائق نادرة تجعله يرقى إلى مرتبة الأصول الأولى التي لا يمكن الاستغناء عنها فى دراسة تاريخ المغرب والأندلس.

ويتّسم الكتاب بتركيز الاهتمام على الأندلس مما يحمل دلالة واضحة على رسوخ قدم ابن حَيَّان في مجال التاريخ الأندلسي. وقد اعتمد فيه على ما "اقتبس" من مصنفات لمن قبله. ومن ثم كان له حرية الاختيار لما يأخذ وما يدع[٢]، وما يزيد فى قيمة الكتاب أن الكثير من المصادر التي استند إليها أصولها فُقدت، ولم يعد بإمكان الباحثين مراجعتها، إلا من خلال هذا الكتاب. وقد انتهت إلينا من المقتبس، خمس قطع؛ بالاضافة الى نصوص متناثرة وردت بين ثنايا مؤلفات المؤرخين اللاحقين، ونحاول التعريف بالقطع الخمس على النحو التالي:-

القطعة الأولى:

وقف عليها ليفي بروفنسال في خزانة القرويين بفاس، وهى تضم ستين لوحة كبيرة، وتحتوى على حوادث الأندلس من سنة ١٨٠ هـ/ ٧٩٦ م إلى سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٨ م، ومادة الكتاب تضم تأريخ لإمارة الحكم ابن هشام (١٨٠-٢٠٦هـ/ ٧٩٦-٨٢٢م)، ولخمس وعشرين سنة من إمارة ابنه عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦-

(١) إسماعيل العربى: مقدمة نشرته لجزء من المقتبس. السفر الثالث، ط ١، دار الآفاق الجديدة، المغرب ١٩٩٠، ص ٨.

(٢) عائشة عبد الرحمن: أبو مروان ابن حَيَّان القرطبى وتاريخ الأندلس، مجلة المناهل، عدد ٢٩ لسنة ١٩٨١ م، ص ٣٥.

٢٣٢هـ/ ٨٢٢-٨٤٧ م)، وبها معلومات جد فريدة [١]، ولم يترك بروفنسال وصفاً مفصلاً لهذه القطعة، وفي سنة ١٩٥٠م أصدر بروفنسال في باريس كتابه " تاريخ إسبانيا الإسلامية" وفي مستهل عرضه لإمارة الحكم بن هشام يقول: **أن " أهم مصدر سيعتمد عليه في تاريخ هذه الإمارة، وفي إمارة ابنه عبد الرحمن، هو مخطوطة جامع القرويين بفاس** [٢]. وقد بعث بروفنسال بصورة المخطوط إلى الدكتور عبد الحميد العَبّادي لكي يشترك معه في تحقيق المخطوط، ولكن ذلك لم يتم. ومنذ ذلك الوقت لم يعرف أحد لهذه القطعة مستقراً [٣]، ولم توجد بين أوراق بروفنسال بعد وفاته [٤]. وكانت المفاجأة عندما تم اكتشاف هذه السفر النادر على يد أوثق تلاميذ المستشرق الأسباني غرسية غومس وهو **خواكين بالبيه برميخو** الذي خلف غومس على كرسي اللغة العربية في جامعة مدريد وذلك في عام ١٩٩٨م، وتم إعداد طبعة فاكسميلية للمخطوط تعميماً لفائدته، وصدرت في مدريد في سنة ١٩٩٩م، هذا وقد نشر د. مكي هذا السفر عام ٢٠٠٣ م[٥].

القطعة الثانية:

وهى تلي القطعة الأولى من حيث الترتيب التاريخي، وتؤلف معها مخطوطا واحداً، وهى قطعة كبيرة تحتوى على ٩٥ لوحة، أي نحو ١٩٠ صفحة، وترقيم الأوراق متصل بترقيمها في القطعة السابقة، فهو يبدأ برقم ١٨٩ وينتهي بـ ٢٨٤ وتحتوى على تاريخ الأندلس من سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م إلى سنة ٢٦٧ هـ/ ٨٨٠

---

(١) عنان: تراجم إسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (مكتبة الأسرة ٢٠٠٠ م)، ص ٢٧٧.

(٢) محمود مكى: ابن حَيَّان، أمير مؤرخى الأندلس، ندوة الجمعية التاريخية، ضمن محاضرات الموسم الثقافي لعام ٢٠٠٤ - ٢٠٠٥ بتاريخ ٣/ ٣/ ٢٠٠٥.

(٣) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ١٤٧.

(٤) عنان: تراجم، ص ٢٧٧.

(٥) نشره تحت عنوان " السفر الثانى من كتاب المقتبس، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية وعرض فيه قصة السفر كاملة، ص ٥٧، وأطلقنا عليه السفر الثانى، الشطر الأول عند التوثيق.

م، وتتناول تاريخ الأندلس خلال السنوات الأخيرة من إمارة عبد الرحمن الأوسط بن الحكم (٢٣٢هـ/ ٨٤٦ م - ٢٣٨هـ/ ٨٥٢ م) ثم معظم إمارة محمد بن عبد الرحمن (٢٣٨هـ/ ٨٥٢ م - ٢٧٣هـ/ ٨٨٦ م)[١]، وقد اطلع عليها بروفنسال، واستفاد من بعض نصوصها في كتابه عن تاريخ الأندلس، وقد قام بنشرها الدكتور محمود علي مَكي في سنة ١٩٧٣م[٢].

القطعة الثالثة:

وهى توجد بالمكتبة البودلية بأكسفورد، وتتكون من ١٠٧ لوحة، وتتضمن في معظمها حوادث عهد الأمير عبد الله بن محمد، وأخبار ثوار الأندلس خلال الفتنة الكبرى من سنة ٢٧٦ هـ/ ٨٨٩ م، إلى نهاية عهد الأمير عبد الله في سنة ٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م. وقد قام بنشر القطعة ملشور أنطونيا، وصدرت في باريس في سنة ١٩٣٧م[٣]. ثم أعاد تحقيقها من المغرب إسماعيل العربي في سنة ١٩٩٠م ضمن منشورات دار الآفاق الجديدة بالمغرب.

القطعة الرابعة:

وقام بنشرها بدرو شالميتا مستيعناً بكورينطي ومحمود صبح، ويضم الشطر الأكبر من خلافة عبد الرحمن الناصر[٤] (٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م - ٣٣٠ هـ - ٩٤١ م). وهي تؤلف القسم الخامس من الكتاب، ويقع السفر في ١٨٥ ورقة كبيرة، وهو ناقص في أوله، بيد أنه مع ضخامته، لا يشمل عصر الناصر كله[٥]. وتلا ذلك نشر ترجمة إسبانية لهذه القطعة، قام بها الأستاذان فيديريكو كورينتى وماريا خيوس بيغيرا[٦].

---

(١) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ١٤٨.

(٢) وصدر عن دار الكتاب العربى.

(٣) مكى: مقدمة الشطر الثانى، نفسه، ص ٢٧٨.

(٤) شوقى ضيف: تاريخ الأدب، ص ٥٠٢، تتناول السنوات الثلاثين الأولى من حكم الناصر.

(٥) عنان: تراجم، ص ٢٧٩.

(٦) محمود مكي: مقدمة نشرته لجزء من المقتبس، الشطر الأول، ص ٢٢.

القطعة الخامسة:

وهى قطعة صغيرة تتكون من نحو ستين ورقة من القطع الصغيرة، وتحتوى على خمس سنوات غير كاملة من حكم الخليفة المستنصر بالله وهى أعوام ما بين ٣٦٠هـ / ٩٧٠ م - ٣٦٤هـ / ٩٧٤ م، وهى تحتوى على معلومات هامة عن الشئون الإدارية في هذا العصر. وقد قام باستنساخ هذه القطعة العلامة كوديرا من إحدى المكتبات الخاصة بمدينة قسنطينة بالجزائر[١] وأودعت بعد ذلك مكتبة أكاديمية التاريخ بمدريد، ثم قام بتحقيقها عبد الرحمن علي الحجي، وصدرت في بيروت سنة ١٩٦٥م[٢]، ولم تمض سنوات على نشر هذه القطعة في بيروت، حتى نشر غرسية غومس ترجمة إسبانية كاملة لهذا الجزء[٣]. وفي عام ٢٠٠٦ م، قام بنشرها مرة أخرى الدكتور صلاح الدين الهواري ولم يعطي الدكتور الهواري أي مبرر لإعادة نشر القطعة واكتفى بقوله: " ظهر منشورا لأول مرة في بيروت عام ١٩٦٥ م "[٤].

وبإمعان النظر في هذه القطع الخمس، نقف على الآتي:

١ - أن القطعتين الأولى والثانية[٥] تؤلفان السفر الثاني كاملاً من الكتاب إذ يقول ناسخها " **كمل السفر الثاني بحمد الله تعالى، يتلوه في الثالث مبتدأ نجوم[٦] عمر بن حفصون كبير الثوار في الأندلس** "[٧].

٢- إذا كان هذا السفر الثانى هو المتضمن أحداث الأندلس من مبتدأ خلافة الحكم بن هشام حتى قرب نهاية محمد بن عبد الرحمن (١٨٠ هـ - ٢٦٧ هـ / ٧٩٦

---

(١) وهى مكتبة سيدى حمودة.

(٢) صدرت ضمن المكتبة الأندلسية، رقم ٤، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.

(٣) محمود مكى: مقدمة نشرته لجزء من المقتبس، الشطر الأول، ص ٢١.

(٤) صلاح الدين الهوارى: مقدمة نشرته لجزء من المقتبس. المكتبة العصرية، بيروت، ط ١، ٢٠٠٦ ص ٦.

(٥) وتتألف من كلتيهما مخطوطة جامع القرويين بفاس.

(٦) نجوم: أى ظهور.

(٧) المقتبس (تحقيق مكي، الشطر الثاني)، ص ٤٠٠.

- ٨٨٠ م)؛ فإن السفر الأول المفقود من المقتبس لابد أنه كان يتناول المقدمة الجغرافية التى يرجح أن ابن حَيَّان صدر بها تاريخه، ثم فتح العرب للأندلس، وعهد الأمراء التابعين لخلافة بنى أُمَيّة فى دِمَشْق إلى يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري (٩١ - ١٣٨هـ/ ٧٠٩ - ٧٥٥ م)؛ ثم إمارتى عبد الرحمن بن معاوية الداخل (١٣٨ - ١٨٠هـ/ ٧٥٥ - ٧٩٦ م)، وابنه هشام (١٧٢ - ١٨٠ هـ/ ٧٨٨ - ٧٩٦ م). أى أن هذا السفر الأول كان يضم تأريخاً لنحو تسعين سنة من حياة الأندلس. وليس هذا السفر مجهولا تماما، فقد أورد المقري فى " نفح الطيب " نقولا كثيرة منه، ولاسيما فى الجزأين الأول والرابع[1].

٣- أما القطعة الثالثة وهى التي نشرها ملتشور أنطونيا عن مخطوطة أكسفورد فإن ظاهر ما ذكره الناشر أنها تضم القسم (أو السفر) الثالث من الكتاب كاملا. ولكن الحقيقة هي أن ما نشر ليس إلا جزءاً من هذا السفر لأن نهاية القطعة التي الثانية تنص على أن السفر المذكور يبدأ بنجوم عمر بن حفصون وأحداث ثورته. كما أنه لا بد أن يكون قد تضمن سرد الأحداث بين سنتي ٢٦٧ هـ/ ٨٨٠ م التي ينتهي بها المخطوط و ٢٧٥ هـ/ ٨٨٨ م التي يبدأ بها السرد في مخطوطة أكسفورد. وإذا كان المتوقع من ابن حَيَّان التفصيل في أحداث ثورة ابن حفصون وغيره ممن قد يكون أشار إليهم من الثوار في أواخر أيام الأمير محمد؛ فإن هذه الفجوة بين القطعة الثانية التي نشرها مكي وقطعة أنطونيا ـ وتدخل فيها كذلك إمارة المنذر بن محمد (بين سنتي ٢٧٣ هـ/ ٨٨٦ م و ٢٧٥هـ/ ٨٨٨ م) ـ لا بد أن تكون كبيرة وأن السفر الثالث كان يبلغ ضعف ما نشر.

٤- أما بالنسبة إلى القطعة الرابعة، وهى مخطوطة القصر الملكي فى الرباط آخر ما اكتشف من قطع " المقتبس "، وهي تؤرخ لسنوات من خلافة عبد الرحمن الناصر الطويلة التي امتدت على طول خمسين سنة (٣٠٠ هـ/ ٩١٢ م -٣٥٠هـ/ ٩٦١ م)، وقد ذكر أنطونيا فيما نقله عن الفهرس القديم لمكتبة القصر السلطاني فى مكناس أن

---

(١) من طبعة الشيخ محيى الدين عبد الحميد.

هذا المخطوطة تؤلف القسم (أو السفر) الخامس من الكتاب. وربما كان لنا أن نفهم من ذلك أن خلافة عبد الرحمن الناصر قد تكون استغرقت القسمين الرابع والخامس، بل وربما السادس أيضاً من الكتاب، فهي من أَجَّل عهود التاريخ الأندلسي وأحفله بالأحداث ولا بد أن ابن حَيَّان قد أسهب في الحديث عنها كل الإسهاب.

٥- أما القطعة الأخيرة - وهى مخطوطة المجمع التاريخي الملكي بمدريد المستنسخة عن مخطوطة قسنطينة بالجزائر -، والتي نشرها الحجي لم يُسَجَل عليها إلى أي أسفار المقتبس تنتمي. وإذا كان كتاب " أخبار الدولة العامرية " يبدأ بولاية هشام بن الحكم المؤيد في سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م؛ فهذا يرجح أن التأريخ لخلافة عبد الرحمن الناصر استغرقت سفرين أو ثلاثة على أكثر تقدير – أي حتى السفر السادس – فلا يبقى من سياق التاريخ إلا خلافة الحكم المستنصر، وبالتالي يكون ابن حَيَّان قد جعل كتابة في " أخبار الدولة العامرية " في أول الأمر جزءاً من المقتبس، ونحن نعرف مما يذكره المؤرخون حول هذا الكتاب ومدى ما فصل ابن حَيَّان فيه الحديث عن العامريين أنه ربما استحق أن يشغل ثلاثة أسفار أو أربعة من " المقتبس" ثم بدا له بعد ذلك أن يجعل له عنوانا خاصا.

٦- أن الموضوعات التي طرقها ابن حَيَّان في المقتبس، تتلخص في التأريخ لأُمراء الأندلس وخلفائه تأريخا وافياً في المجالين السياسي والحضاري، إذ تناول بالتفصيل حياة كل حاكم وسياسته إبان حكمه، والموظفين الذين قام بتعيينهم من وزراء وحجاب وكتاب وقضاة، وما اندلع في عصره من أحداث ووقائع[١]، فنجده يتحدث على سبيل المثال عن **"ثورات طُلَيطِلَةُ"**[٢]، و**"ثورة الرَّبَض"**[3] و" ثورة

---

(١) محمود إسماعيل: الفكر التاريخى، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٢) المقتبس (تحقيق مكى، السفر الثانى)، ص ١٠٦.

(٣) الرَّبَض: بالتحريك وآخره ضاد معجمة، راجع: السمعانى: الأنساب، ج١، ص ٤٥٨، وراجع تفاصيل الثورة في المقتبس (السفر الثاني، تحقيق مكي)، ص ١٤٢

عمر بن حفصون "[1]، كما أولي اهتماما للحركة النصرانية داخل الأندلس وخارجها موضحاً بدايتها، وجهود أُمراء الأندلس في مواجهتها ، كما عالج أخبار الوزراء والحجاب والكتاب والأدباء والشعراء، هذا فضلا عن أخبار اقتصادية واجتماعية كالجوائح الطبيعية والمجاعات والأوبئة[2]، **وهو ما سنعرض له بالتفصيل عند الحديث عن المحتوى .**

ثانيا: المتين:

يذكر بعض المؤرخين من أمثال ابن سعيد بأنه يسمى " **المتين** " حيث قال: " **وقال ابن حَيَّان في المتين** "[3]، أما **السخاوي** في كتابه " **الإعلان بالتوبيخ** " فيطلق عليه " **المبين** " مرة و " **المتين** " مرة أخرى[4]. وأشار اليه **الشَّقْندي**[5] باسم " **المتين** "[6].

ويتألف الكتاب من ستين مجلدة، وهو حصيلة متابعة، وحصاد معايشة، سجل فيه ابن حَيَّان كل شؤون الأندلس السياسية، والحربية، والحزبية والاجتماعية، والثقافية، والأدبية، مع ترجمة وافية للمعاصرين له من العلماء والحكام والأدباء والوزراء والقواد، وامتزج كل هذا بمقطوعات من النثر، وقصائد من الشعر [7]،

---

(١) عمر بن حفصون: سليل أسرة من المولدين، اعتنق جعفر جده الرابع الاسلام، وقد بدأ نجمه فى الظهور منذ سنة ٢٥٠ هـ وقد اشتهر بثورته على الإمارة الأُمَوية طوال نصف قرن الى أن أخضعه الخليفة الناصر، وتوفى سنة ٣٠٥ هـ.

(٢) محمود إسماعيل: الفكر التاريخى، مرجع سابق، ص ٩٨.

(٣) ابن سعيد المغربى: المغرب، مرجع سابق، ص ٣٥٤.

(٤) راجع: السخاوى: الاعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ، ترجمة، تحقيق: فرانز روزنتال، دار الكتب العلمية، ١٩٨٩ م.

(٥) الشَّقْندى أبو الوليد إسماعيل بن محمد (- ٦٢٩) صاحب كتاب اطرف ورسالة مشهورة فى تفضيل الأندلس على بر العُدْوَة، عارض بها أبا يحيى صهر ناصر بنى عبد المؤمن، وقد احتفظ بها المقرى فى النفح فى الباب السابع من القسم الأول، وهذا النص منها مأخوذ على سبيل الاختصار. (انظر ترجمة الشَّقْندى فى المغرب ١: ٢١٣).

(٦) راجع، المقرى، نفح، ج٣، ص ١٩٣.

(٧) الشكعة: المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص ٣٥٥.

وقد فُقد هذا الكتاب، ولكن في كتب المؤلفين التالين لعصر ابن حَيَّان نقولاً كثيرة عنه من أهمها وأوفرها ما نجده في كتاب " **الذخيرة** " لابن بَسَّام الشنرتيني، حتى أنه لو استخرجت تلك النقول من مختلف أقسام الذخيرة ومن بعض المراجع الأخرى مثل الجزء الثالث من البيان المُغْرِب لابن عذاري، وكتب ابن الأَبَّار ومغرب ابن سعيد، وصلة ابن بَشْكُوَال حتى عصر ملوك الطوائف، وكذلك صلة ابن بَشْكُوَال، وترتيب المدارك للقاضي عِياض؛ لأمكن إعادة بناء[١] جزء كبير من المتين[٢].

ويبدأ التاريخ في "المتين" بأحداث الفتنة البربرية التي انفجرت في الأندلس في سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م، وينتهي قبل موت ابن حَيَّان بسنوات قليلة – في نحو سنة ٤٦٣ هـ / ١٠٧١م؛ وهذا على الأقل هو التاريخ الذى تنقطع فيه نقول ابن بَسَّام من هذا الكتاب، أى أنه يتناول تأريخ نحو أربع وستين سنة من حياة الأندلس المعاصرة لابن حَيَّان، وهى معظم هذا العصر الذي يعرف باسم " عصر ملوك الطوائف"[٣]، وتوفر له في هذا الكتاب من وسائل التلقي المباشر ما لم يكن متاحاً له في المقتبس؛ فكان أن سمى تأريخه لما شهد وسمع " **المتين** " دلالة على ثقته بكل ما يكتب ويدون من مشاهدات، ويدل أيضاً على تثبته مما تلقاه سماعاً أو مكاتبة، من رواية شهود للأحداث[٤].

أما الخلاف الذي حدث بين المؤرخين فهو: أي الكتابين بدأ بتأليفه ؟ هل بدأ بالمقتبس ؟ وهو لهذا يمثل دور وكتابات فترة الشباب بينما جاء المتين ثمرة فترة الشيخوخة والنضج ؟ هذا هو رأى دوزي في مقدمة نشرته لكتاب البيان المُغْرِب لابن عذارى[٥]، وسار على قوله كل من مورينو نبيتو Moreno Nieto في

---

(١) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٦٩.

(٢) وقد قام بتجميع نصوص المتين من الذخيرة الدكتور عبد الله محمد جمال الدين ضمن إصدارات المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢ م.

(٣) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٦٩.

(٤) عائشة عبد الرحمن: أبو مروان، مرجع سابق، ص ٣٦.

(٥) عبد الله جمال الدين: من نصوص كتاب المتين، مرجع سابق، ص ٩

بحثه " **دراسة نقدية للمؤرخين الأندلسيين** "[1]؛ ثم بونس بويجس، وملتشور أنطونيا. ويرفض دكتور محمود مكي – ونرفض معه – أن يفرق بين الكتابين على أساس أن " المقتبس" نتاج شباب و "المتين " نتاج شيخوخة". فالذي يتصوره هو أنه لم يسر حسب خطة موضوعة تقتضي بتأليف "المقتبس" أولا حتى إذا فرغ منه بدأ بكتابة المتين، بل كان شروعه في العملين في وقت واحد"[2]، ولذا يمكن القول " أن المقتبس لم يكن من نتائج شبابه كما زعم دوزي[3]، وغرسية غومس، وإنما كان عمل مؤرخ ناضج مكتمل. وأن المقتبس كان مثل تأليف المتين منجماً(٤)، يخرجه شيئاً فشيئا، مع تكرار النظر فيه باستمرار، ولعله حين بدأ تأليفه التاريخي، لم يفكر في البداية في كتابين، والتاريخ الذي عاصره وشهد أحداثه ثم بعد ذلك بمرور الزمن وتضخم الكتاب، فقرر توزيعه على قسمين:

الأول: يضم ما جمعه من الكتب السابقة في تاريخ الأندلس، منذ الفتح حتى الفتنة وهو **"المقتبس"**.

والثاني: هو الخالص من نتاج قلمه، وفيه يواصل تاريخ ما عاصره، وشهده من الأحداث حتى قرب وفاته، وهو " **المتين** ".

ثالثاً: أخبار الدولة العامرية[5]:

ولابن حَيَّان كتاب آخر مفقود وهو " **أخبار الدولة العامرية**"، ويشهد بوجود

وأنظر أيضا: مقدمة دوزى Histoire de l'Afrique du Nord et de l'Espagne Musulmane ، intitulee Kitab al-Bayan al-Mughrib et Fragments de la Chronique de Arib, p.73.

(١) وهو الخطاب الذى ألقاه عند استقباله عضوا فى المجمع الملكى التاريخى الإسبانى فى ٢٩ مايو ١٨٦٤) راجع، مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٧٠.

(٣) راجع مقال:

Chalmeta: Historiografia medieval hispana: Arabica en Al- Andalus Vol XXXVII pp.352-404.

(4) Avila, Lusia La Feche de redaccion del Muqtabis, en Alcontra Vol.V,PP. 93– 108 :.

(٥) الدولة العامرية من (٣٦٨ – ٣٩٩ هـ: ٩٧٨ – ١٠٠٩ م).

هذا الكتاب بين مؤلفاته معظم من كتب عنه كابن الأبّار حيث يقول:" **وغزواته في كل صائفة متصلة، أزيد من خمسين – عدها ابن حَيَّان في كتابه الموضوع في أخبار الدولة العامرية، وجعله لمن شاء خزله عن تاريخه الكبير أو ضمه اليه – حتى أذعن له ملوك الروم ورغبوا في مصاهرته**"[1]، ويزيد ابن الخطيب بياناً بهذا الكتاب، فقدم اضافات عن حجم الكتاب وأجزائه، إذ يقول: " **ذكر أبومروان ابن حَيَّان ابن خلف فى كتابه الذى أنافت على المائة أسفاره المسمى بأخبار الدولة العامرية المنسوخة بالفتنة البربرية،وما جرى فيها من الأحداث الشنيعة** "[2]. أما هذه الأسفار المائة فهو شئ يتوقف على ما يفهمه ابن الخطيب من لفظ سفر، فهو شئ نسبي يرجع إلى التقدير، وقد يكون السفر كراسة أو ملزمة، هذا مع التسليم بأن الكتاب لا بد أن يكون بالفعل بالغ الضخامة.

والكتاب يمكن اعتباره ضمن تاريخه الكبير نهاية للمقتبس، أو مقدمة للمتين أما الفترة التي يعالجها كتاب " أخبار الدولة العامرية " تنحصر بين ولاية هشام المؤيد للخلافة سنة ٣٦٦هـ / ٩٧٦ م ، وثورة محمد بن هشام المهدي على العامريين في سنة ٣٩٩هـ / ١٠٠٨م، وإطاحته بهذه الأسرة التي ظلت خلال ثلث القرن الماضي مستبدة بالسلطة، ويقص فيه ابن حَيَّان سيرة المنصور ابن أبي عامر وتفاصيل غزواته، ولو وصل إلينا هذا الكتاب لكان لدينا عن المنصور أعظم الروايات والوثائق، لأنه نشأ في أواخر عهده، وكان أبوه ضمن وزراء المنصور"[3].

كما رصد فيه ابن حَيَّان من غلبة الخصيان وأفاعيل الجواري وانحراف بعض القادة والوزراء وخروج العصاة المتمردين إلى العدو. ناهيك عن الصراع بين المنصور العامري وجعفر المُصْحَفِيّ[4] والقائد غالب ثم الصراع بين العامري

---

(١) ابن الأبّار: الحُلة السِّيَراء، ج٢، تحقيق، حُسَين مؤنس، ج١،دار المعارف، القاهرة١٩٨٥م،ص٢٦٩.

(٢) ابن الخطيب: أعمال،مرجع سابق، ص ١١٤.

(٣) عنان: تراجم، ص ٢٧٦.

(٤) جعفر المُصْحَفِيّ هو: جعفر بن عثمان أبو الحسن الوزير الحاجب، المعروف بابن المُصْحَفِيّ، كان من أهل العلم والادب وله شعر كثير، استوزره المستنصر بالله وقتل فى عهد ابن أبى عامر، راجع فى ترجمته: الحُمَيِّدى: جذوة المقتبس، ترجمة رقم، ٣٥٣، الضَّبىّ: بغية الملتمس، ترجمة رقم ٦١٤، الحُلة السِّيَراء ، ج٢ ص ٢٥٧، نفح الطيب، ج١، ص ٤٠٢.

وصبح أم الخليفة هشام، وهي معلومات غاية في الأهمية في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ الأندلس.

رابعاً: البطشة الكبرى.

أما كتاب "البطشة الكبرى" فموضوعه: غدر المُعْتَمِد بن عَبَّاد واستيلاؤه على قُرْطُبَة، وبطشه ببني جَهْوَر وحكامها ونفيه لهم (٤٦٢ هـ /١٠٧٠ م)، وهم الذين استنجدوا به لينقذهم من غزوة المأمون بن ذي النون[1]، وقد أشار اليه ابن بَسَّام بقوله: **" فصح عندي أنه وصف كيفية خلعهم وإخراجهم من قُرْطُبَة في جزء كبير سماه " البطشة الكبرى " في مجلد كبير "**[2]، **" وكلامه فيه من لباب بلاغته "**[3].

والخلاصة: أنه من هذه الكتب الأربعة السابقة يتألف ما يعرف باسم "التاريخ الكبير " لابن حَيَّان، وهذا هو ما استقر عليه ابن حَيَّان ومعاصروه حين وضع هذه المجموعة من الكتب التي تضم تاريخ الأندلس منذ الفتح العربي حتى قرب وفاته، أي على طول أكثر من ثلاثة قرون ونصف قرن. وهذا هو الذي يفسر لنا أن معظم المؤرخين حينما ينقلون عن ابن حَيَّان لا يهتمون كثيراً بأن يثبتوا أن النص المنقول ينتمي إلى هذا الكتاب أو ذاك، وإنما حسبهم أن يقولوا إنه من " تاريخ " ابن حَيَّان أو " تاريخه الكبير ".

أما بنسبة لمحتوى مصنفات ابن حَيَّان فيمكن أن تُقَسَم إلى جوانب سياسية ودبلوماسية، وجوانب اقتصادية، وجانب اجتماعية ثقافية.

أولاً: الجوانب السياسية والدبلوماسية:

رصد ابن حَيَّان في مؤلفاته الواقع السياسي للأندلس وعالجه على طول صفحات التاريخ الكبير، ويرجع ذلك لعدة أسباب أهمها: الوضع السياسي المتردي لأمراء الطوائف وما كانوا عليه من ظلم وجور وفساد، بجانب ما عانته الأندلس من فرقة

---

(١) عبد الله جمال الدين: من نصوص كتاب المتين، مرجع سابق، ص ١٢.

(٢) الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ١، ص ٣٨١.

(٣) ابن الخطيب: أعمال، مرجع سابق، ص ١٥١.

وتشتت؛ فكان بديهيا أن يركز على الجوانب السياسية أكثر من غيرها، وقد تعرض لبلاد الأندلس والشمال الأسباني، وبلاد المغرب؛ فتناول التاريخ السياسي لأمراء الأندلس وخلفائها، كما تعرض بالتفصيل لحياة كل حاكم وسياساته إبان حكمه، وما اندلع في عصره من أحداث ووقائع، وقام بإصدار أحكام عامة حول شخصيته، وما اتسمت به فترة حكمه، كما عالج أخبار الوزراء والحجاب والكتاب والأدباء والشعراء [1]، وركز بصفة خاصة على الأحداث السياسية في قُرْطُبَة التي كان يعتد بها أشد الاعتداد، وكان يرى بأنها ينبغي أن تحتل مكاناً من أمكنة الصدارة في العالم الإسلامي؛ لذا أعطاها جُل اهتمامه.

وكان يروى كبرى الأحداث السياسية والعسكرية، متخذاً **ولاءه لبني أُمَيّة** منطلقاً أساسياً لكتاباته مما أدى إلى تسفيه خصومهم في الداخل والخارج ونعتهم بأقبح الصفات والنعوت [2]، إلا انه من خلال هذا الهجوم أمدنا بمعلومات وفيرة عن حركات المعارضة في الأندلس[3]. كما تناول مشكلة الإمامة والخلافة؛ فكان يرى ضرورة أن يكون " **خليفة المسلمين من قريش** "[4]، وحيث أن الأُمَويين من قريش، وكانوا بالفعل ممثلين في شورى الإمامة، فان الخلافة حق من حقوقهم، بل يزيد فيجعل خلفاء بني أُمَيّة امتداداً طبيعياً لخلافة الراشدين فأقاموا رسوم السُنة، وأحرزوا وظائف الديانة "[5].

وكان يرى ثلاث مهمات كبرى للخليفة: عسكرية وإدارية ومدنية[6]؛ ولذا نراه يصف حال أهل طُلَيطِلَةُ وما نالهم من الذل على أيدي العدو الإفرنجي بعد استقرار دول ملوك الطوائف أنهم " **عدموا الراعي العنوف منذ حِقَب**"[7]، ويقول في

---

(١) محمود إسماعيل: الفكر التاريخى، مرجع سابق ، ص ٩٨.
(٢) نفسه، ص ١٠٠.
(٣) للمزيد راجع، المقتبس (تحقيق شالميتا)، ١١٢ - ١١٣ .
(٤) نفسه، ص ٢٢ .
(٥) نفسه، ص ٢٢ .
(٦) وداد القاضى: نفسه، ص ٢٧٥.
(٧) الذخيرة: (تحقيق البدري)، ج٣، ص ٥٥٥، نقلا عن ابن حَيَّان.

معرض مدحه لمسلك أبي الحزم ابن جَهْوَر في إدارة الأمور بقُرْطُبَة إن أهل قُرْطُبَة " **ولو من الجماعة أمينها المأمون عليها**"[1]؛ أما اللقب الذي يطلقه على الناصر " **مجمع الفرقة** "[2] " **الساهر العين في ضم شتات المملكة** "[3] وهو من مدت إليه " **النصرانية من وراء الدروب يد الإذعان** "[4]؛ فالقيام بجهاد العدو هو الذي جعله معجبا أشد الإعجاب بالناصر والمستنصر والمنصور العامري وابنه عبد الملك المُظَفَّر، ويجعل الجهاد مطلب أساسي للأمة في مناطق الثغور، إذا لم يلتقطه الإمام ويدفع به من القوة إلى الفعل فمن شأن ذلك الإمام أن يسقط، فإذا قام غيره بتولي هذا الدفع؛ فإن الأمة تلتف حوله ويصبح هو صاحب السلطة الفعلية في البلاد[5].

وما حدث سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م إثر وفاة الحكم المستنصر وتولي ابنه هشام المؤيد الخلافة نظرياً، خير دليل على ذلك؛ حيث تولى الأمر المنصور العامري لأنه قام بالجهاد ملبيا لطلب الأمة وهيأه لإمامة المسلمين فأورد عنواناً لذلك وهو: " **ذكر دفاع ابن أبي عامر العدو، وقيامه بالجهاد دون الجماعة وتوصله بذلك إلى تدبير الملك** "[6].

كما أدلى بآرائه في حركات المنتزين – الثائرين – في الأندلس والمغرب، وهى في نظره حركات خارجة عن السنة والجماعة في الأندلس فوصفهم بالمروق، **والفساد، والشر، والخلاف، والنفاق، والغواية، والفسق**" [7]، فمن هؤلاء المنتزين من كان هدفه " **السعي في الأرض بالفساد والاستحلال لغنائم المسلمين، ومنهم من كان يسعى إلى " قطع السبيل وإشاعة الفساد في الأرض وسفك الدماء**[8]، وكبيرهم

---

(١) نفسه، ج١، ص ٣٧٣ ، نقلا عن ابن حَيَّان.
(٢) المقتبس (انطونيا)، ص ٩ .
(٣) المقتبس (شالميتا)، ص ٢٥٠ .
(٤) المقتبس (شالميتا)، ص نفح الطيب، ج٣، ص ٨٥ .
(٥) وداد القاضي: الفكر السياسى، مرجع سابق، ص ٢٥٨.
(٦) الذخيرة: (تحقيق البدرى)، ج٤، ص ٣٨ ، نقلا عن ابن حَيَّان.
(٧) ابن حيان: المقتبس (شالميتا)، ص ٥٦، ٢٥٥.
(٨) ابن حيان: المقتبس (انطونيا)، ص ٢٢.

عمر بن حفصون ملحد[1] وكافر[2] وخنزير ضال[3]، وسليمان ولده خبيث[4]، وشقيقه حفص مستمسك بحبل الغواية[5].

ولا يفوته أن يسجل في ابن حفصون شعراً:

كأني بابن حفصون وشيكا على جرداء بين دعامتين

وقد أضحى خنيصاه منه على متن الرصيف بجانبين[6]

ويتحدث ابن حيان عن " **سعيد بن سليمان بن جودى** " أمير العرب المنتزين بمدينة غرناطة، ويذكر عنه ما قاله ولده عبد الله فيه من شغفه بالجوارى، وأنه كان: " مقدماً لهن على جميع لذاته، ويمضى في ذكر شغفه بشرائهن وأشعاره فيهن[7].

ويبدو فى رواية ابن حيان هذه التلازم بين الظروف السياسية وثورات المنتزين، والآثار المترتبة على ذلك من حيث التفكك القيمي والأخلاقي الذي أصاب المجتمع في بعض أنماطه[8].

هذا وقد عالج مسائل سياسية غاية في الأهمية تخص بلاد المغرب أيضا؛ فقد كان علمه بتاريخ الشمال الإفريقي كله لا يقل عن علمه بالأندلس ولكنه لم يقصده لذاته؛ بل اقتصر منه على ما لا غنى عنه في تأريخ العلاقات المتصلة المتشابكة بين الأندلس ودول المغرب العربي على امتداد السواحل الإفريقية. وقد نص في إحدى

---

(١) ابن حيان: المقتبس (شالميتا)، ص ٢١٦.

(٢) ابن حيان: المقتبس (شالميتا)، ص ١٢١.

(٣) ابن حيان: المقتبس (شالميتا)، ص ٢٣٤.

(٤) ابن حيان: المقتبس (شالميتا)، ص ٢٠٤.

(٥) ابن حيان: المقتبس (شالميتا)، ص ٢١٧.

(٦) ابن حيان: المقتبس (شالميتا)، ص ٢١٧ والأبيات لمقدم ابن معافي.

(٧) ابن حيان: المقتبس (انطونيا)، ص ١٢٣.

(٨) عادل يحي عبد المنعم: النقد الاجتماعي عند المؤرخين والكتاب الأندلسيين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ص ٨١.

قطع المقتبس[١]، على أخذه عن اثنين من المؤرخين المغاربة، هما الوراق[٢] وابن الجزار[٣] القَيْرَوَانيين، وصفحات هذه القطعة من المقتبس حافلة بالأخبار القيمة عن المغرب، وفى القطعة التي حققها الدكتور مكي سنة ١٩٧٣ م، نجد أخبار أخرى جديدة تماما عن العلاقات بين إمارة قُرْطُبَة وإمارتي الأغالبة في القَيْرَوَان والمدراريين في سِجِلْماسة خلال القرن الثالث الهجري (٩ م) [٤]. كذلك نشير إلى قطعة كبيرة من تاريخه احتفظ لنا بها صاحب كتاب " **مفاخر البربر** " حول سياسة المنصور بن أبى عامر في المغرب، وهذه القطعة وحدها تبلغ نصف الكتاب[5].

وكان يجد قابلية للتفصيل فيما يتعلق بصلة الدولة الأُمَوية بالمغرب فقد كان يولي اهتماماً وعناية لسائر الإمارات والدول التي انفصلت عن الخلافة في المشرق وأنشأت لها كيانات خاصة بها من أمثال **إمارة في نكور وبني مدرار في سِجِلْماسة " وبني رستم " في تاهرت، و" البرغواطيين "** في تامسنا وكذلك العلاقات مع **"الأغالبة والعبيديين"**[٦]. وقد أمدنا في هذا الصدد بأزيد من مائة وخمسين وثيقة تمتد عبر السنين التي شهدتها دولة بني أُمَيّة وعاشتها الإمارات المغربية.... كان جُل الوثائق على مستوى كبير من الأهمية، وفيها الكثير مما كان يتبادل بين العمال والوزراء فيما بينهم[٧]، وأوضحت لنا مدى اهتمام بني أُمَيّة بأخبار المغرب والمشرق حتى تظل على علم بما يجري هناك.

كما أعد فصلاً خاصاً ببني إدريس: أصولهم وطموحهم ومصيرهم. وظل يتهم بني محمد ابن إدريس بالتعصب للشيعة، حيث إن هؤلاء يدّعون الإمامة[8]. كما كان

---

(١) وهى الخاصة بسنوات من خلافة الحكم المستنصر.

(٢) المقتبس (الحجى)، ص ٣٣.

(٣) نفسه، ص ٣٦.

(٤) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثانى)، ص ١٢٩، ١٣٠، ٢٧٥.

(٥) راجع: مفاخر البربر، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، ط١، دار أبى رقراق، المغرب ٢٠٠٥

(٦) عبد الهادى التازى: العلاقات المغربية الأندلسية، مجلة المناهل، عدد ٢٩ لسنة ١٩٨١ م، ص ٤١٨

(٧) نفسه، ص ٤١٩

(٨) راجع: المقتبس (شالميتا)، ص ٢٦١.

لاهتمامه بأخبار فاس وعدوتها الغربية التابعة لبني أُمَيّة وعدوتها الشرقية التابعة للفاطميين[1] أن مكن الباحثين من اكتشاف نصوص ورؤى جديدة، وقد قام الأستاذ الدكتور محمود إسماعيل استنادا إلى هذه الحقائق الجديدة في معالجة موضوع السياسة الداخلية والخارجية لدولة الأدارسة[2] استنادا إلى هذه النصوص التي " **تذخر بمعلومات جديدة وثرية في عصر الأدارسة الأواخر الذي كان شبه مجهول، كما استفاد منها في معرفة أوضاع المغرب الأقصى في عهود الأدارسة الأواخر وعلاقتهم بالفاطميين وأمويي الأندلس**[3] وكانت إفاداته حول هذه المرحلة القلقة من تاريخ المغرب تعكس الأسباب التي كانت تقف وراء السلام الهش الذي عرفه التاريخ بين بني إدريس وبين بني أُمَيّة.

ومن الموضوعات التي عالجها في تاريخه: " **انجازات أهل العُدْوَة** " – ويقصد بلاد المغرب –؛ فنجده قد تحدث في مناسبات وبصيغ مختلفة عن أهل العُدْوَة وما شيدوه في بلادهم من دول إمارات كانت على صلة بالأندلس قبل الصراع مع الفاطميين وبعده. وسجل في حولياته تطورات هذه الصلة وما كان الأُمَويين ثم العامريون يخططونه للاحتفاظ بما كسبوه من نفوذ بين زعماء البربر وقادتهم وقبائلهم[4].

ومن خلال ما نقله صاحب كتاب مفاخر البربر عن ابن حَيَّان في أخبار المنصور ابن أبي عامر مع البربر نجد استيعابه المعهود بذكر السوابق واللواحق وعوامل

---

(١) التازي: العلاقات، مرجع سابق، ص ٤٢٤

(٢) الأدارسة (١٧٢-٣٦٣ هـ/ ٧٨٨-٩٧٤ م): دولة إسلامية شيعية في المغرب. أسسها إدريس بن عبد الله. استقلت عن الخلافة العباسية وملكت المغرب الأقصى وتلمسان. كانت عاصمتها وليلي ثم فاس. ناوأها العباسيون والأغالبة. أضعفتها الانقسامات الداخلية فوقعت تحت سيطرة الفاطميين. تفرعت عنها دولة بني حمود في الأندلس. أهم آثارها العمرانية تأسيس مدينة فاس ومبانيها لا سيما جامع القرويين، راجع، الموسوعة الإسلامية العامة،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠١ م، ص ٨٦.

(٣) محمود إسماعيل: الأدارسة، حقائق جديدة، ط١، مكتبة مدبولى، القاهرة ١٩٩١ م، ص ١٢.

(٤) عبد القادر زمامة: ابن حَيَّان وأهل العُدْوَة، مجلة المناهل، عدد ٢٩ لسنة ١٩٨١ م، ص ٤٣٧.

التحركات القبلية والأُمَوية والفاطمية والإدريسية، ولأسباب المواقف التي تتخذها الأطراف المعنية في الأندلس والمغرب مع نظرات نقدية لسياسة الأُمَويين والعامريين والأدارسة والفاطميين وقادة قبائل أهل العُدْوَة[١].

كما أورد معلومات جد هامة عن سياسة الناصر في بلاد المغرب وبدايات صراعه مع الفواطم، وموقف القوى المغربية بين القطبين المتصارعين[٢]. وما كتبه عن سياسة عبد الرحمن الناصر مع قادة القبائل وأُمراء الأدارسة والسليمانيين واستيلائه على مدينة سبتة[3] سنة ٣١٩ هـ/ ٩٣١ م؛ لدرء مطامع الفاطميين كان وما يزال من النصوص التاريخية التي تكشف عن حقبة غامضة من تاريخ العُدْوَة[٤].

ومما يزيد من قيمة نصوص ابن حَيَّان أنها تحتفظ بعدد كبير من الرسائل الرسمية المتبادلة بين الأدارسة وقادة أهل العُدْوَة من جهة وبين عبد الرحمن الناصر من جهة أخرى[٥]، ومضمون هذه الرسائل يسجل حقائق مفيدة عن تاريخ الأدارسة وسياستهم ومشاعرهم الخاصة نحو العُدْوَة وأهلها[٦]. كما سجل الشئ الكثير عن حركة موسى ابن أبي العافية وأنجاله والقبائل التي كانت تنقاد إليه، والارتباط الذي كان بينه وبين الأُمَويين في ظروف مختلفة.

أما ما كتبه عن سياسة الحكم المستنصر مع قادة القبائل وأُمراء الأدارسة وما بعثه إلى العُدْوَة المغربية من خبراء وقواد فإنه يصور حدة الصراع الذي كان يدور بين

---

(١) نفسه، ص ٤٣٨.

(٢) محمود إسماعيل: الفكر التاريخى، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٣) سبتة: من قواعد بلاد المغرب على البحر المتوسط، وهى مدينة حصينة،أخرجت عددا من العلماء منهم ابن مرانة السَّبْتى وكان أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه ومنهم ابن عطاء الكاتب وابن غازى الخطيب ومنهم أبو الفضل عِياض بن عمرو اليَحْصُبىّ صاحب كتاب (الشفا) راجع فى وصفها: ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص ٣٠، الحِمْيَرى: الروض المعطار، ص ٣٠٣.

(٤) عبد القادر زمامة: ابن حَيَّان، مرجع سابق، ص ٤٣٩.

(٥) عبد القادر زمامة: ابن حَيَّان، مرجع سابق، ص ٤٣٩.

(٦) نفسه، ص ٤٤٠.

التيارات المتعاكسة داخلية وخارجية[1]. وكان تعليقه على سياسة الحكم في جلب أهل العُدْوَة وضمهم إلى جيوش قُرْطُبَة مطرزا بتلميحات وتصريحات عن المحاسن والمساوئ والسوابق واللواحق التي يعلمها عن هؤلاء، وكأنه يريد أن يقول أن هؤلاء هم الذين أوقدوا الفتنة في قُرْطُبَة بين الأُمَويين والعامريين[2].

ومن هذا العرض، يتضح أن ابن حَيَّان أرخ للعدوتين المغرب والأندلس، تأريخا شاملا مؤسسا على الاهتمام بالأخبار بالدرجة الأولى[3].

والمستعرض لتاريخ ابن حَيَّان سواء في "المقتبس" أو في "المتين" يجد أنه كان أيضاً على معرفة دقيقة بإسبانيا المسيحية[4]، وممالكها وأمرائها وأنسابهم وسنوات حكمهم ووفياتهم وأحوال بلادهم الداخلية[5]. بل هو يقدم لنا أحيانا بعض الأخبار عن تاريخ إسبانيا على عهد الرومان، مثل كلامه عن أوكتافيانوس – أكتبيان – Octavianus ثاني قياصرة الروم[6]، ومبانيه في الأندلس، وتاريخ قنطرة قُرْطُبَة التي بنيت قبل الفتح العربي بنحو مائتي سنة[7]، وعن المائدة المنسوبة إلى سليمان النبي بن داود، ونجح في تصحيح الكثير من الأخطاء والأوهام التي شاعت في كتب التاريخ السابقة عليه، ونذكر بهذه المناسبة أنه بدد الخرافة الشائعة عن مائدة سليمان، ويورد التفسير المنطقي التاريخي الوحيد الذي يمكن قبوله حول هذه

---

(١) راجع، المقتبس (تحقيق الحجى)، ص ١١٨ .

(٢)عبد القادر زمامة: ابن حَيَّان، مرجع سابق، ص ٤٤١.

(٣) محمود إسماعيل: الفكر التاريخى، مرجع سابق، ص ٩٩.

(٤) وتعتبر دراسة الأستاذ الدكتور عبد المحسن طه رمضان **" الحروب الصليبية فى الأندلس "** من أهم الدراسات التى تناولت تلك المسألة وباستفاضة أكاديمية متميزة، راجع الحروب الصليبية فى الأندلس، ص ٣٧ – ٤٠.

(٥) وأول من أشار إلى تلك المعلومة كان المستشرق راينهارت دوزى.

(٦) راجع نفح الطيب، ج٢، ص ٢٦، نقلا عن بن حيان حيث قال عن اكتبيان **" ثانى قياصرة الروم الذى ملك أكثر الدّنيا وصفّح نهر رومية بالصّفر، فأرّخت الروم، من ذلك العهد، وكان من قبل ميلاد المسيح عليه السلام بثمان وثلاثين سنة - أمر ببناء المدن العظيمة بالأندلس، فبنيت فى مدّته قرطبة وإشبيلية وماردة وسرقسطة "** .

(٧) نفسه.

المائدة[1]. وإنما " **أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسنة منهم إذا مات أحدهم أوصى بمال للكنائس فإذا اجتمع عندهم ذلك المال صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة...ويضعونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها فكانت تلك المائدة بطُلَيطِلَةُ**[2].

ويتعرض للذريق آخر ملوك القوط ونسبه، وأنه لم يكن من أبناء الملوك ولا صحيح النسب في القوط، وعن قصة بنت يليان، وغدر أصحاب لذريق به في موقعة وادي بكة التي هزم فيها أمام المسلمين[3]، وعن فتوح المسلمين في شمال الأندلس وامتدادهم إلى الأرض الكبيرة (فرنسا)، وذكر ما استرده الملك النصراني فرويله Fruela من المسلمين في الفتنة التي سبقت ووافقت مقدم عبد الرحمن بن معاوية الداخل (ت ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م)، وحروبه مع يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري مسجلاً كل ذلك في دقة بالغة[4] .

وفى القطع المنشورة من كتاب " المقتبس " من التفاصيل الدقيقة حول أخبار إسبانيا المسيحية ما جعل مؤرخي إسبانيا في العصور الوسطى يعكفون على دراستها، ويستخرجون منهما ما صحح كثيراً من الأخطاء الشائعة المتناقلة في التواريخ القديمة، ويزيد صورة التاريخ الإسباني بشطريه الإسلامي والمسيحي جلاء وبياناً؛ ولذا يؤكد دكتور مكي أن ابن حَيَّان ينبغي أن يكون في طليعة من يرجع إليهم عند الحديث عن تاريخ إسبانيا المسيحية حتى أواخر القرن العاشر الميلادي، ولا مفر من جمع أخباره وتقصيها ودراستها قبل إصدار أحكام قاطعة حول ذلك التاريخ[5].

أما المتين فإن القطع التي عرفت منه عن طريق "الذخيرة " لابن بَسَّام قد أعانت

---

(١) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٩٨ – ٩٩.
(٢) نفح، ج ١، ص ٢٣٣.
(٣) نفسه، ج١، ٢١٦ – ٢١٧.
(٤) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى، ص ٩٩.
(٥) محمود مكي: مقدمة المقتبس، الشطر الثاني، ص ١٠٠.

كذلك على تصحيح كثر من أخطاء كتاب المدونات المسيحية واستنتاجات الباحثين المحدثين حول بعض الأحداث الواقعة خلال القرن الحادي عشر الميلادي ويكفي أن نشير إلى مثلين: الأول هو خبر المصاهرة التي تمت بين ابن ريمند قومس[1] برشلونة Ramon Borrell III، وابن شانجه قومس قَشْتَالَة2)) Sancho Garcia I ، وذلك بزواج ابن الأول وولى عهده برنجار بن ريمند Berenguer Ramon من شانجه Sanchaابنة الثاني. وقد أعدت هذه المصاهرة ـ كما تبين من نص ابن حَيَّان المنقول في " الذخيرة" في سَرَقُسْطة[3] وبتدبير من منذر بن يَحْيىَ التُّجِيبي ملك الثغر الأعلى. وكان الذي استقر في أذهان الباحثين منذ قديم أن هذا الزواج تم بين ابن قومس برشلونة وابنة قومس غشقونية Gascogne [4]، حتى اكتشف دوزي نص ابن بَسَّام في الذخيرة[5]، فصحح ذلك الخطأ الشائع، وأتت بعد ذلك شواهد جديدة تؤكد رأى دوزي بعد اكتشاف مزيد من النصوص الأندلسية[6]. والمثل الثاني هو تفصيله لحادثة بربشتر[7] التي احتل فيها

---

(١) قومس Gomez: كلمة لاتينية تعنى زعيم أو رئيس النصارى، وقد وجد هذا المنصب فى اسبانيا على أيام الرومان ثم القوط، وأقر العرب على هذا الوضع وكان للقومس سلطات عسكرية ومالية وقضائية. ثم تطور حتى أصبح منصباً دينياً، راجع، نادية مرسى صالح: العلاقات الإسلامية المسيحية فى اسبانيا، عين للدراسات، ط ٢٠٠٠، ص ٥٨، حاشية رقم ١.

(٢) قَشْتَالَة: Castilla، لفظ لاتينى معناه القلعة وكان العرب يسمون قشتالة القديمة القلاع ويسمونها ايضا قشتيلة، وتقع خلف جبل الشارات من جهة الشمال للمزيد، راجع، نادية مرسى: العلاقات الإسلامية المسيحية فى اسبانيا، ص ٥٩، حاشية رقم ١.

(٣) سَرَقُسْطة Zaragoza: بفتح أوله وثانيه ثم قاف مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء مهملة. بلدة مشهورة بالأندلس تتصل أعمالها بأعمال تُطِيْلَة ذات فواكه عذبة لها فضل على سائر فواكه الأندلس مبنية على نهر كبير وهو نهر منبعث من جبال القلاع قد انفردت بصنعة السَّمُور ولطف تدبيره تقوم فى طرزها بكمالها منفردة بالنسج فى منوالها وهى الثياب الرقيقة المعروفة بالسرقسطية، راجع: ياقوت: معجم، ج٣، ص ٢١٢، أبو بكر الزهرى: كتاب الجغرافية، ص ٨١.

(٤) تقع فى جنوب غربى فرنسا.

(٥) مخطوطة الذخيرة (ولم تكن قد نشرت بعد).

(٦) محمود مكى: مقدمة المقتبس، الشطر الثانى ، ص ١٠١.

(٧) بربُشتَرُ Barbastro: بضم الباء الثانية وسكون الشين المعجمة وفتح التاء المثناة من فوق. مدينة عظيمة في شرقي الأندلس من أعمال بربَطَانية وقد صارت للروم في صدر سنة ٤٥٢ حُمِلَ منها

المجوس[1] (النورمان) هذه المدينة الأندلسية الواقعة في أقصى الشمال على سفوح جبال البرتات (البيرينيه) في سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م ثم استردها المسلمون في السنة التالية. فأخبار هذه الوقعة مفصلة لدى ابن حَيَّان على نحو يدل على معرفة دقيقة بأوضاع الممالك المسيحية لا في شبه الجزيرة فحسب، بل كذلك فيما وراء جبال البرتات إلى الشمال[2] وبالتالي يعتبر ابن حَيَّان من المؤرخين القلائل الذين فصلوا هذه الأحداث السياسية المهمة في تاريخ إسبانيا المسيحية .

ثانياً: الجوانب الاقتصادية والإدارية: -

كان ابن حَيَّان مهتماً بالجوانب الاقتصادية أيّما اهتمام، ونستشف من العديد من مفرداته مدى اهتمامه بالجانب الاقتصادي من قبيل: " **دار السكة** " و" **دار الضرب** " و" **خالص الذهب والفضة** "، و" **قبض الجباية** "، و" **تدليس العملة** " الخ.؛ فنجده تارة يكشف عن ما حدث من تدليس في العملة على عهد الناصر عندما اتخذ داراً للضرب سنة " ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م "، وكان ممن تولى أمرها " سعيد بن جساس " الذي يقول عنه:.... **فخان أمانته واستغشه وامتحن عياره، فكشف غشه، فسخط عليه وسجنه، وقلد السكة قاسم بن خالد صاحب العيار الجيد المضروب به المثل في اليوم** [3]، وتارة أخرى يشير إلى تدني قيمة النقد؛ ففي نازلة لابن الحاج يشير

لصاحب القسطنطينية فى جملة الهدايا سبعة آلاف بكر منتخبة ثم استعادها المسلمون فى إمارة أحمد بن سليمان بن هود فى سنة ٥٧. بعد ذلك بخمسة أعوام فغنموا فيما غنموا عشرة آلاف امرأة ثم عادت إليهم خذلهم اللهُ. ولها حصون كثيرة منها حصن القصر وحصن الباكة وحصن قصر مينوقش وغير ذلك، وينسب إليها خلف بن يوسف المقرى البربشترى أبو القاسم روى عن أبى عمرو المقرى وأجاز له وكان من أهل القرآن والحديث والبراعة والفهم وتوفى فى شهررمضان سنة ٤٥١، ويوسف بن عمر بن أيوب بن زكرياء التَّجِيبى الثغرى البربشترى أبوعمرو، راجع: ياقوت: معجم، ج١، ص ٣٧٠.

(١) المجوس أو الاردمانيون) (Nordmani) النورمان (Norsemen) كانوا يغيرون على الأندلس من المنافذ النهرية؛ انظر ابن حيان: (المقتبس، الشطر الأول) ص ٤٥٠ – ٤٦١، ابن عذارى ٢: ١٣٠ فى غارتهم سنة ٢٣٠هـ ، ابن الأَبَّار: الحُلة السِّيَراء ، ج٢، ص ٣٧٢.

(٢) وكانت مخطوطة ولم تكن قد نشرت بعد.

(٣) المقتبس: (شالميتا)، ص ٢٤٣.

فيها إلى ابن حَيَّان كمصدر ورد ذكر أدلة بخصوص تداول النقود المزيفة فيقول ابن الحاج: " أشار أبو مروان بن حيان في مؤرخه حول سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣ م، وقال: **" خلال هذه السنة تم توزيع ذهب قرمونة[1] الرخيص في قُرْطُبَة وقد ضرب من طرف صاحب قرمونة عبد العزيز إسحاق بن عبد الله، ويستعمل الآن في دكاكين قُرْطُبَة ولا يتداول في غيرها، لأن ملكا ابن جَهْوَر خضع أمام ضغوط ابن عبد الله، فأمر بتداوله خوفا من بطش صاحب قرمونة وحفاظاً على مكانته السياسية، وبذلك أساء إلى السكان دون خوف من الله، فاغتنى مفقراً الرعية التي أصبحت تستعمل هذه النقود في تجارتها وفي حياتها العامة. لقد فحصت قيمة هذه النقود عن طريق وزنها بحبوب من القمح وكانت أغلبية النقود التي فحصتها معادلة للمثقال أو دونه "**[2].

ويتعرض كذلك لأحوال **السِكة**[3] **والطراز**[4] في أيام الأمير عبد الرحمن بن الحكم، حين أُحدثت بقُرْطُبَة، وغيرها من بلاد الأندلس الطرز لأنواع الكسوة والوطاء. واستنبطت فيها الأعمال، وتُدُرج فيها إلى التجويد. فكان الأمير عبد الرحمن، أول من أقام بالأندلس الطرز، واستنبط فيها أعمال الكسوة الرائقة، وتولى له النظر فيها **حارث بن بزيع**[5]. **ويستعرض أمور الخزانة قائلاً: " الأمير عبد الرحمن**

---

(١) قرمونة (Carmona) مدينة إلى الشمال الشرقى من إشبيلِيَة على بعد ٣٥ كيلومتراً وكانت كورة واسعة تضم عدة مدن وحصون، راجع الروض المعطار: ١٥٨.

(٢) ابن الحاج: نوازل ابن الحاج، رقم ج ٥٥، - الخزانة العامة، الرباط، ص ١٢٥.

(٣) السكة: من شارات الخلافة، بل من شارات الملك على الإطلاق، والمقصود بها: الختم على النقود بطابع من حديد ينقش عليه اسم الخليفة، للمزيد راجع، سعاد ماهر: شارات الخلافة، مجلة الدارة، عدد ٣ الرياض، ١٩٧٧ م.

(٤) الطراز: الشارة الثالثة من شارات الخلافة، وهو عند ابن خلدون من ابهة الملك والسلطان، وقد أجمعت الدراسات الحديثة على أن دور الطراز فى العصر الإسلامى نشأت فى عهد الدولة الأموية وظل معمولاً بها حتى نهاية العصر الفاطمى إذ لا نجد لها أثراً فى العصر الأيوبى للمزيد راجع، سعاد ماهر: شارات، مرجع سابق.

(٥) والحارث بن بزيع من كبار قواد عبد الرحمن الأوسط كما تولى دار الطراز فى قُرْطُبَة، راجع المقتبس (تحقيق مكي، الشطرالأول)، ص ٢٩٠.

هو الذي بنى ديوان الخزانة على باب قصره من خارجه ورتب الخُزان فيه أربعة في دُوله، ورزق كل واحد منهم عشرين ديناراً، بالوازنة في كل شهر. وقد كان منهم في أيامه موسى بن حدير "[1].

ونجده يخصص من بين الأحداث البارزة لسنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م فقرة للخبر عن اتخاذ دار الضرب بعنوان " **اتخاذ دار الضرب** " وما له من أثر اقتصادي على البلاد والعباد " فقام بالضرب فيها من لدن هذا التاريخ من خالص الذهب والفضة وصحح في ذلك ابن حدير، وأجاد الاحتراس من أهل الدلسة فأضحت دنانيره ودراهمه عياراً محضاً "[2] ، ويخصص أيضاً فقرة هامة تحت عنوان " **خروج الجيش لقبض الجباية** "[3].

كما أرخ **للوضعية الجبائية والمالية** مثل ما أرخه حول الوضعية الجبائية والمالية للدولة العامرية؛ فيقول ابن الخطيب في أعمال الأعلام: " **ذكر أبو مروان خلف رحمه الله في كتابه...المسمى بأخبار الدولة العامرية... فقال: " كان مبلغ جباية آخر أيام المنصور أربعة آلاف دينار سوى رسوم المواريث بقُرْطُبَة وكور الأندلس كانت تجري على الأمانة وسوى مال السبي والمغانم على اتساعه في هذه وسوى ما يتصل به السلطان من المصادرات ومثل ذلك مما لا يرجع إلى قانون، قال: وكانوا يعتدونها أربع بيوت تأخذ النفقات السلطانية منها على المشاهرة بالزيادة والنقصان ما بين الشهر والشهر مائتي ألف دينار إلى مائة وخمسين ألفا إلى أن يدخل شهر يونيه العجمي فيتضاعف فيه الإنفاق من اجل الاستعداد لغزو الصائفة فينتهي منه إلى خمسمائة ألف دينار وأكثر منها وما فضل من المال بعد جميع النفقات أحرزه السلطان في بيت ماله مع غير ذلك من ضروب استفاداته**[4] ، كما تعرض للحديث عن أهل البيوتات الذين اتخذوا الضياع الواسعة منهم بني حجاج الذين امتلكوا في " **باديتهم**

---

(١) المقتبس (تحقيق مكى، الشطرالأول)، ص ٢٩٢.

(٢) المقتبس: (شالميتا)، ص ٢٤٣.

(٣) راجع التفاصيل فى المقتبس: (شالميتا)، ص ٤٨٦.

(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص ١١٤ - ١١٥.

بالسند المنسوب اليهم على خمسة عشر ميلاً من الحاضرة "[1]، وكذلك " الإلهانيين والمعافريين وبني خلدون الإشبيليين اللذين اكتسبوا الضياع سواء بالبادية أو الحاضرة "[2]، ويكشف ابن حيان النقاب عن قرى بأكملها تملكها " كريب بن عثمان " بكورة مورو ومثله أيضاً كان سليمان بن محمد الشذوني[3].

وتعرض أيضاً لذكر " الذكوات والصدقات "[4] التي يتكلف الجباة بتحصيلها من الفلاحين وحتى تتمكن الخلافة من تغطية نفقات الحملات الحربية استحدثت " مغرم الحشد "[5] الذي عم الجميع باستثناء المطوعة[6].

وأظهر أثر الخراب الذي خلفه الهجوم العسكرى الذي شنه نصارى الشمال وكذلك هجوم النورمان ضد بربشتر ٤٥٦ هـ/ ١٠٦٤ م وصور لنا الاستيلاء على الأموال والثروات وكيف أن علياً بن حمود فرض ضرائب عالية في قرطبة[7]. وقد كان للرعب الذي هيمن على قرطبة خلال عهد علي بن حمود، نتائج وخيمة على المستوى الاقتصادي ويروي لنا ابن حيان كيف أن أهل قرطبة كانوا يقضون النهار مختبئين في منازلهم، ويقول " وتطمروا في بطون الأرض، حتى قل بالنهار ظهورهم وخلت أسواقهم، فإذا دنا المساء وكف الطلب عنهم، انتشروا تحت الظلام لبعض حاجتهم "[8].

كما استعرض أمر الإتاوات التي كان يؤديها ملوك الطوائف إلى الملوك الإسبان في الشمال، وكانت سبباً من أسباب إفلاسهم الاقتصادي والسياسي وكيف كان كل

---

(١) المقتبس: (أنطونيا)، ص ٧١.
(٢) المصدر والصفحة نفسيهما.
(٣) المصدر والصفحة نفسيهما.
(٤) المقتبس (تحقيق شالميتا)، ص ٤٦٨.
(٥) المقتبس (تحقيق الحجى)، ص ٢٠٧.
(٦) أحمد الطاهرى:الفلاحة والعمران القروى بالأندلس خلال عصر بنى عباد، مركز اسكندرية للكتاب، ٢٠٠٤، ص ٢٥.
(٧) راجع القصة كاملة فى الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٣، ص ١١٦ - ١٢٣.
(٨) الذخيرة: (تحقيق البدري) ج ١، ص ٦١.

ملك من ملوك الطوائف يكتري جنوداً ببعض الأموال، ويدفع بهم لمواجهة منافسيه، إما حسداً، أو لأنهم يرغبون في الاستيلاء على أراضيه"[1].

كما تعرض ابن حَيَّان لرصد المجاعات والأوبئة[2]؛ بل ويفسر سببها بدقة فيقول: **" نالت أهل الأندلس مجاعة شديدة...سنة سبع ومائتين، وكان سببها انتشار الجراد بالأرض ولحسه الغلات وتردده بالجهات، فنالت الناس مجاعة عظيمة "**[3]، وعند ذكره مجاعة سنة ٢٠٧ هـ/ ٨٢٢ م، أكد على أنه: **" بلغ مُدى القمح في بعض الكُوَر ثلاثين ديناراً، واستسقى فيها أهل قُرْطُبَة مراراً عدة** [4]، وتناول دور الأمير عبد الرحمن الأوسط ومحاولته التخفيف من آثار هذه المجاعة؛ **فأمر بإقامة صلاة الاستسقاء في نفس العام**[5].

وفي أحداث سنة ٢٣٢ هـ/ ٨٤٦ م يذكر: **" القحط الذي عم الأندلس فهلكت المواشي، واحترقت الكروم، وكثر الجراد، فزاد في المجاعة وضيق المعيشة "**[6]، ومن الكوارث التي رصدها بدقة الكارثة التي حدثت **" في يوم الأربعاء لتسع خلون من رجب حيث هاجت ريح شديدة وتنزل غيث وابل، وقلعت الريح العاصف في هذا اليوم كثيرا من شجر الزيتون وملخت أغصانه وكسرت كثيرا من الشجر غيره، وكان هول الريح عظيما وتأثيرها سيئا وجاد المطر وابلا منهملا تمادى انسكابه يومين "**[7].

كما ذكر القحط الذي عم لبلاد سنة ٢٦٠ هـ/ ٨٧٣ م فيقول: **" وفيها أصاب الأندلس مجاع شديدة أردفت الأعوام الجداعة**[8] **التي توالت عليها في عقدة**

---

(١) للمزيد، راجع، الذخيرة: (تحقيق البدرى) ج ٣، ص ١١٧.
(٢) راجع على سبيل المثال، المقتبس (السفر الثانى، تحقيق مكى)، ص ٩١ ".
(٣) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثانى)، ص ٩٣.
(٤) المقتبس: (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ٤١٢ - ٤١٤.
(٥) المقتبس: (تحقيق مكى، الشطر الثانى)، ص ٩٣.
(٦) المقتبس: (تحقيق مكى، الشطر الثانى)، ص ١.
(٧) المقتبس: (تحقيق الحجى)، ص ١٥٤.
(٨) الجداعة: من الجداع وهى السنة الشديدة التى تؤخر النبات فلا ينمو، راجع، ابن منظور: لسان العرب، مادة جدع.

الخمسين[1] ". ورصد ابن حيان مجاعة كبرى حدثت سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م نتيجة لاحتباس المطر، ونتج عنه كارثة مات خلالها عدد كبير من أهل الأندلس، كما فر عدد آخر إلى بلاد المغرب، وكانت منطقة جيان من أكثر المناطق تضرراً بهذه المجاعة، حتى أنه أطلق على هذا العام " **سنة جوع جيان** "[2].

وفي بداية عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر عم الأندلس قحط شديد عام ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م، بسبب انقطاع المطر، وساءت حالة المزارعين، وشرح ابن حيان تلك المجاعة وأكد على " **غلاء الأسعار في جميع جهاتها** "[3]. ويستمر ابن حيان في رصد القحط والجفاف في العام التالي ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م؛ فيقول: " **فيها كانت المجاعة بالأندلس التي شبهت بمجاعة سنة ستين؛ فاشتد الغلاء وبلغت الحاجة والفاقة بالناس مبلغاً لم يكن لهم عهد بمثلها، وبلغ قفيز[4] القمح بكيل سوق قرطبة ثلاثة دنانير دخل أربعين، ووقع الوباء في الناس، فكثر الموتان في أهل الفاقة والحاجة حتى عجز عن دفنهم** "[5].

واتخذ الناصر إجراء كان له أكبر الأثر في الحد من تفاقم الأزمة، فقد ضرب بشدة على أيدي المفسدين وقطاع الطرق وبعض الثائرين عليه، لأنهم كانوا يهاجمون قوافل تجار المسلمين الذين يجلبون المواد الغذائية من خارج الأندلس لمواجهة هذه لمجاعة، ويعلق ابن حيان على هذا الإجراء بقوله: " **ونفع الله بذلك كله الكافة** "[6]. ويتعرض لخبر توسيع **المحجة العظمى** بسوق قُرْطُبَة لضيقها عن مخترق الناس

---

(١) المقتبس: (تحقيق مكى، الشطر الثانى)، ص ٣٤٣.

(٢) المقتبس: (تحقيق العربى)، ص ٣٤٣.

(٣) المقتبس: (تحقيق شالميتا)، ص ١٠٣.

(٤) القفيز: مقياس يساوى عشر قصبات مربعة والملاحظ أن القفيز يعتبر كذلك من الأوزان ووزنه ثمانية أرطال واستخدم أيضا للدلالة على مكيال عرف فى "السواد" قبل الإسلام باسم: "الشابرقان" وعندما مسح عمر بن الخطاب "السواد" فرض على كل "جريب" قفيزا ودرهما، انظر الرازى/ مختار الصحاح/ الكويت ١٤٠٣ هـ ١٩٨٣م - ص. ٥٤٦.

(٥) المقتبس: (تحقيق شالميتا)، ص ١٠٩.

(٦) المصدر والصفحة نفسيهما.

وازدحامهم فيها، وهد الحوانيت المتحيفة لعرضها، المضيقة لسبيلها، كما ينفسح الطريق ولا يضيق بالواردين والصادرين، نظرا منه لكافة المسلمين واهتبالا بمصالحهم، فأتم ذلك على ما حد له "[1].

وكشف ابن حَيَّان في النص التالي عن مصالح أمويي الأندلس في تجارة المغرب؛ وبالذات ما تعلق منها بالسلع السودانية. وهذا يفسر لماذا أوصى الأمير محمد وزراءه وعماله بحسن معاملة تجار العُدْوَة[2] حيث يقول ابن حَيَّان: " **كان الأمير محمد كثير المواصلة لملوك العُدْوَة، حريصا على استئلافهم، موالياً لمراسلتهم، مواظبا لمتاحفتهم.... يقول لوزرائه كثيرا وخدمته؛ استدعوا مؤالفتهم بلطيف المخاطبة... ويأمر صاحب العمل دأبا أن يزيدهم في قيم ما يهديه كبارهم ويحمل تجارهم من بلادهم؛ غبطا لهم بمعاملته** "[3].

ويتضح من نص لابن حَيَّان أن تجار الشرق والأندلس – فضلا عن المغاربة – كان لهم وكلاء في المدن المغربية الموصلة إلى أودغشت. وكان معظم سكانها من التجار المغاربة، عربا وبربر، إباضية وصفرية وزيدية[4].

كما رصد سوء الأحوال الاقتصادية المترتبة على المنازعات والحروب خاصة بين ملوك الطوائف[5]؛ فنراه يصف ما حدث بمدينة بَطَلْيَوْس نتيجة النزاع بين المعتضِد العَبّادي والأَفْطَس بأنها "**مصيبة**"، حيث "**خلت الدكاكين والأسواق**"[6]. ويصف القسوة التي استخدمت في جمع الضرائب غير الشرعية بمدينة شاطبة[7] بكل أنواع

---

(١) المقتبس (تحقيق الحجى)، ص ٧١.
(٢) محمود إسماعيل: الأدارسة، ص ١٥٧.
(٣) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الثانى) ص٢٧٥ – ٢٧٦.
(٤) محمود إسماعيل: سوسيولوجيا، مرجع سابق، ص ٤١٤.
(٥) ص ٢٣٥.
(٦) الذخيرة: (تحقيق البدرى)، ج ١، ص ٢٣٩، نقلا عن ابن حَيَّان.
(٧) شَاطِبَةُ Jativa: مدينة فى شرقى الأندلس تقع فى مقاطعة بَلَنْسِية وفى حوض نهر البيضاء شرقى إسبانيا. أسسها الإبيريون وعرفت المدينة فى الفترة الإسلامية ازدهارا كبيرا وعُرفت فى جميع أوروبا كمهد صناعة الورق راجع (ابو الفدا: تقويم البلدان، تحقيق ماك كوكين دى سلان، باريس، ص ١٦٨، العذري ترصيع الأخبار، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، ١٩٦٥ م، ص ٢٠.

العنف حتى تساقطت الرعية **ولم تصمد في وجه هذا الظلم**"[١]. ومن هنا يتضح مدى اهتمام ابن حَيَّان برصد الجوانب الاقتصادية دون الاقتصار على الجانب السياسي فقط.

كان ابن حَيَّان مهتماً أيضاً بالجوانب الإدارية فنجده يقدم لائحة مفصلة تكشف عما آل إليه الوضع الإداري بالأندلس بعد نحو سنة من إعلان الخلافة تتضمن فضلاً عن قرطبة تسع عشر كورة، وقد حددها كالتالي:

" **إلبيرة، إشبيلية، شذونة، إستجة، تاكرنا، قبرة، الجزيرة الخضراء لبلة، أشونة، مورو، رية، جيان، بسطة، تدمير، بلنسية وشاطبة معاً، شنت برية، قلعة رباح، أكشونبة، باجة**[٢]، ولم يبتعد المقدسي في تقاسيمه عن هذا الإحصاء "[٣].

ولم تتوقف التعديلات لطارئة على رسم الحدود الفاصلة بين الكور، ولم تكن سلطة الخلافة قد ترسخت بعد في عدد من المناطق الثغرية مثل: " **بطليوس**"[٤] و"**طليطلة** "[٥] و"**سرقسطة**"[٦]، بجانب "**أصاغر الأعمال يطول اقتصاصها أعرضنا عنها**"[٧]. وهي الوضعية التي تم الحسم فيها بإعادة هيكلة البادية ومسح الأقاليم ورسم الحدود على مدار العقدين الثالث والرابع من القرن الرابع للهجرة[8].

ويرصد ابن حيان أبرز الوحدات التي تحولت من مجرد مدينة عمالة لتندمج ضمن النسيج الإداري مثل " **كورة ماردة** "[٩] بغرب الأندلس، و"**كورة**

---

(١) راجع، ابن عذارى: البيان المُغْرب، مرجع سابق، ج٣، ص ١٦٠، نقلا عن ابن حَيَّان.
(٢) المصدر والصفحة نفسيهما.
(٣) المصدر والصفحة نفسيهما.
(٤) المقتبس (تحقيق شالميتا)، ص ٢٧١.
(٥) نفسه، ص ٢٨٠.
(٦) نفسه، ص ٢٥٥.
(٧) المقتبس (تحقيق شالميتا)، ص ٣٥٧.
(٨) أحمد الطاهري:الفلاحة، مرجع سابق، ص ١١٤.
(٩) المقتبس (تحقيق شالميتا)، ص ٣٣١.

شنترين"[1] و " **باجة وأعمالها** "[2] و " **كورة فريش وفحص البلوط** "[3] بمنطقة الجوف في جبال قرطبة، و " **كورة بجانة** "[4]، ولم يكد القرن الرابع الهجري يأتي على نهايته حتى بلغ مجموع الكور بالأندلس " **سبعاً وثلاثين كورة** ".

وذكر مسألة إدارية هامة على عهد الناصر عندما قام بإدماج وحدتين إداريتين في كورة واحدة مثل " **كورة بلنسية وشاطبة معاً** "[5]، كما ذكر بعض أقاليم الكور، مثل ذكره لأقاليم كورة إشبيلية وهي " **إقليم الشرف، وإقليم طالقة، وإقليم البر، وإقليم البصل** "[6].

وقدم لنا نتائج إحصاء شمل دور قرطبة أيام الفتنة من خلال قوله " وعدة دور الرعايا والسواد بها الواجب على أهلها المبيت في السور أيام الفتنة **مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف دار حاشا دور الوزراء وأكابر الدولة** "[7].

ثالثاً: الجوانب الاجتماعية والثقافية:

تعددت مجالات المعرفة الاجتماعية والثقافية التي طرقها ابن حَيَّان عكست لنا ألواناً من الحياة الأندلسية الاجتماعية والثقافية، ويعتبر تاريخه الكبير أدق وثيقة مفصلة للحياة الثقافية والفكرية للأندلس؛ فنراه يرصد العديد من الظواهر الاجتماعية عندما يصور شرائح المجتمع بما فيها من صور الوشاية، والذم، والمكائد، وفساد القضاة " **وقد انطبقت أرض الأندلس نفاقاً واستعرت خلافاً ذلك بإغفال من كان قبله لحسم من كان ينجم من قرن النفاق حتى تفاقم الأمر بعد تطاوله،**

---

(١) نفسه، ص ٣٣٢.
(٢) نفسه، ص ٣٣١.
(٣) نفسه، ص ٤٨٩.
(٤) نفسه، ص ٣٩١.
(٥) نفسه، ص ٢٥٤، وراجع أيضاً صفحات ٢٨٤، ٢٨٥، ٤٨٨، ٤٩٠.
(٦) المقتبس (تحقيق أنطونيا)، ص ٦٩.
(٧) أورد النص ابن غالب في قطعة من كتابه حققها ونشرها لطفي عبد البديع تحت عنوان " تعليق منتقى من فرحة الأنفس في تاريخ الأندس " مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الثاني، نوفمبر، ١٩٥٥ م، ص ٢٩٦.

وتفاوت الشئ بعد قرب تداركه واستعجل شر عمر بن حفصون جرثومة النفاق وانتزى أكثر بلاد الأندس اقترانه[1].

ومن الأقوال التى ذكرها ابن حيان، والدالة على وجود شهادات الزور فى الأندلس، حديثه عن " محمد بن غالب " من أهل إستجة، كان قد طلب من الأمير عبد الله بناء حصن بقرية، شنت طرس "، وهدفه من ذلك حماية الطريق، ومنع المفسدين وقطاع الطرق من إلحاق الأذى بالمسلمين، وعندما تم بناء الحصن حسده، بنو خلدون وبنو الحجاج " وقامت الحرب بينهما، وادعى بنو حجاج على إثر هذه الحرب أن محمد بن غالب أغتال رجلاً من قرابتهم..... واستدعوا عليه الشهادات المزورة[2].

كما عكس الصراع الذي كان يدور بين الفقهاء والخليفة وكيف أن الخليفة كان يكره أن يكون القاضي قوياً، وهو ما صوره تحت عنوان " **نوادر من أخبار قضاة الأمير عبد الرحمن** "[3]. ومن هذه النوادر أيضاً نستشف النفوذ القوي الذي كان يتمتع به الفقهاء في الدولة، والدليل على ذلك أن الأمير عبد الرحمن قلما يولي قاضياً إلا عن مشورة **يَحْيىَ بن يَحْيىَ اللَّيثي**[4] وفي ذلك يقول ابن حَيَّان: " **وغلب يَحْيىَ بن يَحْيىَ جميعهم على رأي الأمير عبد الرحمن، وألوى بإيثاره، فصار يلتزم من إعظامه وتكريمه وتنفيذ أموره ما يلتزم الوالد لأبيه، فلا يستقضي قاضيا، ولا يعقد عقدا، ولا يمضي في الديانة أمرا، إلا عن رأيه وبعد مشورته** "[5].

---

(١) ابن حيان: المقتبس (انطونيا)، ص ١٠٤.

(٢) ابن حيان: المقتبس (انطونيا)، ص ٧٠.

(٣) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ٤٩.

(٤) يحيى بن يحيى اللَّيثى: هو أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وسلاس المصمودي الأصل، الليثى الولاء رحل إلى المشرق، فسمع من الإمام مالك موطأه وتفقه به، ولما عاد إلى الأندلس تصدى لنشر المذهب المالكى فعلا صيته واشتهر ذكره، راجع، المقتبس (تحقيق مكى) لجة احياء التراث الإسلامى، القاهرة، ص ١٨٠، تاريخ علماء الأندلس، ج٢، ص ٨٩٨ – ٩٠٠.

(٥) المقتبس (تحقيق مكي، الشطر الثاني)، ص ٤٢ - ٤٣.

كما صور لنا بخل الأمير عبد الله بن محمد[١].، وشيوع حوادث الرشوة بالغصب في عهده [٢]، كما صور بعض معايب عبد الرحمن الناصر وتبرز استهتاره باللذات وتغليظ العقوبات، وتهوين الدماء، والعبث في الرعية [٣]. ونرى ذلك أيضاً عندما يتحدث عن النساء وشغف الأمير عبد الرحمن بهن فيقول: " **كان الأمير عبد الرحمن مُستهتراً بالنساء، شديد الميل إليهن، والإعجاب بهن، والبذل لهن، والاستكثار منهن، والهوى فيهن** " [4].

كما سجل مظاهر الاحتفال بالأعياد والمناسبات[5] وكيف كان الشعراء والخطباء في هذه الاحتفالات " **تتناغى فيما ترتجل من خطبها وتنشد من أشعارها فتكثر وتجيد**"[6]، أما الاحتفال الرسمي من قِبَل الخلفاء بالأعياد فقد أطنب في وصفها ابن حيان[7].

ولم يغب عنه أن يعبر عن مظاهر البذخ التي كانت تتسم بها حفلات استقبال الحكام الأندلسيين لمن يفد عليهم، ولذلك يقول عن يوم استقبال الخليفة الحكم المستنصر لجعفر بن على ومن معه إنه: "**أحد الأيام العقم بقُرْطُبَة في اكتمال حسنة وجلالة قدره، خلد حديثه زمناً في أهلها، قاضياً من عجب الجلالة، وكل شيئاً فإلى انقضاء إلا إله الأرض والسماء تعالى جده**[٨].

ومن الصور الاجتماعية التي اهتم ابن حيان بتسجيلها في تاريخه حفلات المجون والتبذير للأمراء والخلفاء والوزراء؛ منها على سبيل المثال حادثة احتفال المأمون بن

---

(١) (٢٧٥ هـ - ٣٠٠ هـ/ ٨٨٨ - ٩١٢ م).
(٢) راجع، (تحقيق مكى، الشطر الثانى)، ص ١٩٢ - ١٩٣.
(٣) راجع، المقتبس (شالميتا)، ص ٣٧.
(٤) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ٢٩٩ - ٣٠٧.
(٥) للمزيد راجع، المقتبس: (تحقيق الحجى)، ص ٢٨، ٥٩، ٨١، ٩٣، ١١٩، ١٣٦، ١٥٥، ١٨٤، ٢٢٩،
(٦) نفسه، ص ٣١.
(٧) نفسه، ص ٦٠، ٦١، ٩٤، ١٨٤.
(٨) نفسه، ص ٥٧.

ذى النون بإعذار حفيده يحيى، تلك الحادثة التي احتلت عدداً غير قليل من الصفحات[1]، يقول في الإعداد لها:

" وأمر ـ المأمون ـ بالاستكثار من الطهاة والانقاء للقدور، والإتراع للجفان، والصلة لأيام الطعام، والمشاكلة بين مقادير الأخباز والآدام، والإغراب فى صنعة ألوانها، مع شياب أباريقها بالطيوب الزكية، والقران فيها بين الأضداد المخالفة ما بين حار وبارد، وحلو وحامض،والمماثلة بين رائق أشخاصها، وبين ما تودع فيها من نفائس صحافها..... "[2].

وكان المدعوون إلى هذه الاحتفالات التي استمرت أياما أشتاتا من الناس من صفوة وعامة، وقد لقي الجميع من الاحتفاء بهم والتكريم لذواتهم ما يمكن أن يشابه ترتيب إدارات المراسم والتشريفات بالقصور الملكية ووصف ابن حيان طائفة القضاة على المائدة في غرفة أسرف وفى وصفها، فإذا انتهوا من الطعام يكمل الجانب التالي من رحلة الدعوة على هذا النحو:

" ولما فرغت تلك الطائفة جئ بهم إلى المجلس المرسوم لوضوئهم، وقد فرش ايضا بوطاء الوشى الرقوم بالذهب، وعلقت فيه ستور مثقلة مماثلة..... ثم نقلوا إلى مجلس التطييب، أفخم تلك المجالس، وهو المجلس المطل على النهر، العالى البناء، السامى السناء، فشرع فى تطييبهم فى مجامر الفضة البديعة بفلق العود الهندى، المشوبة بقطع العنبر الفستقى، بعد أن نديت أعراض ثيابهم بشابيب الماء الورد الجورى، يصب فوق رؤوسهم من أوانى الزجاج المجدود، وفياشات البلور المحفورة "[3].

والذي يعنينا من هذا النص أمور كثيرة، من أهمها الإسراف، والذي يتابع القصة بأكملها حسبما رواها بتفصيلاتها ومجالس القصف فيها وإنشاد الشعر في

---

(١) الذخيرة: (تحقيق البدري) ج ٤، ص ٨١ وما يليها.
(٢) الذخيرة: (تحقيق البدري) ج ٤، ص ٨١.
(٣) الذخيرة: (تحقيق البدري)، ج ٤، ص ٨٣.

مناسبتها وما قد خلعه الأمير عليهم برغم تدنى أشعارهم، كل ذلك كان هدفا من أهداف أبى حيان في تعرية ملوك الطوائف الذين يقتلون المال والبشر، ويقاتل بعضهم بعضاً والعدو متربص بهم، متحفز على أبوابهم[١].

وكشف ابن حيان عن دور العنصر النسائي في بلاد الأندلس، مثلما صور ما كانت تقوم به جارية الخليفة الناصر " مرجان "[٢]، من حيل ضد السيدة فاطمة القرشية بنت أخي جده المنذر بن محمد الأمير، وكان الناصر يقول لجاريته مرجان هذه: **" فاقتادينى إلى قصرك فإني طوع يمينك وحبيس هواك، وكان ذلك على إثر الحيلة التى دبرتها لصرفه عن ابنة عمه فاطمة القرشية، ويقول ابن حيان عن هذه الجارية معتمداً فى ذلك على ما قاله القبشى: فتقدمت لديه جميع نسوانه حتى كانت كرائمه وحظاياه لا يصلن إلى مطالبهن ورغباتهن من الناصر لدين الله إلا بشفاعة مرجان لهن، وتوسلهن بها لديه للطف منزلتها وغلبتها على قلبه.....** [٣].

وصور لنا مكانة الجواري في المجتمع الأندلسي فيورد لنا قصة الجارية مرجان التي كانت من أحب الجواري إلى قلب الخليفة الناصر وأنجبت له ابنه الحكم، فكانت أثيرة الخليفة لا يسلوَ بدون رؤيتها ولا يكتم علها سراً، وإذا مرض حُمِل إلى بيتها[4].

وقد أمدنا ابن حيان بسيل من النصوص، على جانب كبير من الأهمية وتكشف النقاب عن الوضعية الاجتماعية لعدد كبير من فئات المجتمع الأندلسي ومنهم على سبيل المثال: الفقهاء حيث أماط اللثام عن النفوذ الاجتماعي – والسياسي بالطبع – للفقهاء، وكيف كان الأمراء والخلفاء يخشون تقلب الفقهاء عليهم مثلما أورد فى ما نقله من كتاب الاحتفال ما يشير إلى أن الأمير عبد الرحمن بن الحكم كان يكره تألب الفقهاء عليه..... ويقلق منهم ويسميهم **سلسلة السوء** "[٥].

---

(١) الشكعة: المغرب والأندلس، مرجع سابق، ص ٣٧٧.

(٢) إسبانية الأصل، وهي أم الحكم المستنصر بالله.

(٣) ابن حيان: المقتبس (شالميتا)، ص ٧ – ١٣.

(٤) المقتبس: (تحقيق شالميتا)، ص ١٣٣.

(٥) المقتبس: (تحقيق مكي، الشطر الثاني)، ص ٦٧.

وابن حيان لا يغفل أيضاً ذكر الآثار المترتبة على النواحي السياسية من إصابة المؤدبين وكساد الناحية التعليمية للصبيان والمؤدبين [1]،هذا فضلاً عما تكشف عنه روايته من قتل المغنيين والطنبوريين، وهذا يشير إلى ألوان البذخ واللهو فى الأندلس فى " **فترة الفتنة** " [2].

واستطاعت روايات ابن حيان التاريخية أن تكشف عن ازدواجية الشخصية الأندلسية، وذلك عند حديثه عن " **عبد الله بن عاصم** " صاحب الشرطة بقرطبة، على عهد الأمير محمد، الذي مر به، يوما فتى حسن الشارة يترنح سكراً، فأمر بأخذه، فوجدت به رائحة الشرب، فأمر بجلده، فلما جُرد للجلد أقبل على ابن عاصم، فقال له: ناشدتك الله، من الذي يقول:

إذا عاب شرب الخمر فى الدهر عائب.....فلا ذاقها من كان يوما يعيبها

فقال له ابن عاصم: أنا، وأستغفر الله منه، فقال له الفتى: فلا تستحيه عن وجهه حين تغرى بالشرب وتحض عليه، ثم تكشف عنه وتعاقب فيه ؟ فأفحمه ودرأ الحد عنه[٣].

وما أكثر ما ترد في ثنايا تاريخ ابن حيان ملاحظات وتعليقات نفذ بها إلى الكشف عن العيوب الدفينة في المجتمع الأندلسي، هذه العيوب التي أدت شيئا فشيئاً إلى تحللها وتصدعها، وكأنه السرطان الخفي يستشرى في باطن جسد ظاهره الصحة والقُوة. وهى عيوب بدأت منذ أيام الحكم المستنصر، ثم استفحل داؤها على عهد الدولة العامرية. غير أن الأمجاد العسكرية والقوة الظاهرية كانت تلقى عليها حجابا كثيفا سترها عن الأنظار. لقد كانت الفتنة تجثم تحت هذه القشرة الظاهرة من القوة والعظمة، فلما تصدعت واجهة الدولة بعد وفاة المظفر بن المنصور بن أبى

---

(١) الذخيرة: (تحقيق البدري)، ج ١، ص ٢٦ ، نقلا عن ابن حيان.

(٢) الذخيرة: (تحقيق البدري)، ج ١، ص ٢٦ ، نقلا عن ابن حيان.

(٣) ابن حيان: المقتبس (تحقيق مكي)، ص ١٨٧ - ١٨٨ .

عامر إذا بهذا البنيان الشامخ ينهار في لحظات، وإذا ينيران الفتنة المبيرة[1] تندلع معلنة بداية نهاية الإسلام في الأندلس[2].

ومن الناحية الثقافية: قام ابن حَيَّان بالترجمة لمشاهير الأدباء والشعراء وأعلام الفكر[3]، وأورد الكثير من نظمهم سواء كان نثراً أو شعراً؛ ثم يقوم بعرض جمل من أخباره مثل ترجمته لعباس بن فرناس الذي " **نادم الأمير عبد الرحمن بن الحكم وجالسه** [4]، وصديقه **مؤمن بن سعيد الشاعر** [5]، وكذلك ترجمته للشاعر **يَحْيىَ الغزال**[6] وقد وصفه وصف الناقد البارع الحصيف فقال:

"..... وكان مقتدراً على الشعر، سلس الطبع فيه، يُصرفه فى ضروب الشعر بحلاوة لفظ، وملاحة معنى وغُزر مادة. وأكثر شعره محمول على الدعابة والهزل، فلذلك خرج بعضه بألفاض عامية مبتذلة. وهو فيما روى ونقح محسن مُجود وكان على نصاعة أدبه، عالماً مُفتنا جزلا، متكلماً عريضاً مُندراً، كبير الغور ظريف الخبر، خالد الذكر فى الأعصر البائدة "[7].

ونجده يتعرض لذكر مجالس الغناء، و"**خبر زِرْياب**"[8]، و"**المطربين ببلد**

---

(١) المبيرة: المهلكة.

(٢) محمود مكي: مقدمة نشرته لجزء من المقتبس. السفر الثاني، ط ١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٣ م، ص ١١٣.

(٣) للمزيد راجع، المقتبس: (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٤) نفسه، ص ٣٤٧ – ٣٥٠.

(٥) نفسه، ص ٢٤٢ -٢٤٣

(٦) يَحْيىَ الغزال ١٥٦ – ٢٥٠ هـ / ٧٧٣ - ٨٦٤ م: هو يحيى بن الحكم البكرى الجيانى المعروف بالغزال شاعر مطبوع، من أهل الأندلس، امتاز نظمه الجيد الحسن بالفكاهة المستملحة. وكان جليل القدر مقرباً من أمراء الأندلس وملوكها من بنى أمية .أرسله البعض منهم رسولاً إلى ملك الروم. وعرفه ابن دحية بالشاعر عبد الرحمن بن الحكم بن هشام .ووصفه بحدة الخاطر وبديهة الرأى وحسن الجواب والنجدة والإقدام والدخول والخروج من كل باب للمزيد راجع، المقتبس: (تحقيق مكي، الشطر الأول)، ص ٢٤٣ - ٢٤٧.

(٧) ابن حيان: المقتبس المفقود. السفر تحقيق محمود على مكى

(٨) زرْياب ١٦١ - ٢٣٨ هـ/ ٧٧٧ – ٨٥٢م: (معناه الطائر الأسود الجميل الصوت) وزرياب هو: أبو الحسن علي بن افع قدم الأندلس ٢٠٧ هـ وتوفي سنة ٢٣٨ هـ وقد اشتُهر باسم زرياب تشبيهًا

الأندلس " [1]، ويروي ذكر جلساء الأمير عبد الرحمن بن الحكم وسُمّاره الدانين إليه من شعراء أهل زمانه وأدبائهم، **ونبذ من نوادرهم وأشعارهم مما خالطه من أخبارهم**[2]. ويسرد أخبار الشعراء، مع الأمير عبد الرحمن بن الحكم وبعض ما سقط إلينا من أماديحهم له من ذلك **" خبر يَحْيىَ بن حكم الغزال في إرساله إلى ملك الروم "** [3].

ويشير أيضاً إلى شغف الأمير عبد الرحمن بن الحكم بعلم الهيئة، ومطالعته للكتب القديمة، صاغياً إلى علم التنجيم، **واقفاً على سنن التعديل ملياً، يسأل علماءه عن الأدلة، مولعاً بالوقوف على أقوالهم في أحكامه، مقرباً لحذاق المنجمين في زمانه، آنساً بهم، محسناً إليهم، مستريحاً إلى تعديلهم لأوقات حركاتهم، وإنذارهم من طريق أقضيتهم بمساعده ومناحسه.....وكان من مشهور في زمانه ومن قبله عباس بن فرناس، ذو الأنباء الشنيعة، وعبد الواحد بن إسحاق الضَّبِيّ، ذو النوادر البديعة، ومروان بن غزوان، ومحمد ابن عبد الله، وعبد الله بن الشمر بن نمير نديم الأمير، السابق في حلبتهم الزائد في تمام خصاله الأدبية على جماعتهم. فقد كان فيما ينتحلونه من علمهم إماماً لهم، معدوداً في وجوههم، يعول الأمير عبد الرحمن عليه في تمييز. غيب ما يطرقه من شؤونه، ويساوره من خطوبه، فلا يزال يبلو من صدق إصابته،**

له بذلك الطائر الأسود الغِرِّيد لسواد لونه وفصاحته وجمال صوته. ولد فى بلاد الرافدين، وكان بارعاً فى الموسيقى، وعُرف عنه أنه كان يصنع عوده بنفسه، وكان ذلك سببًا فى تقريب الخليفة هارون الرشيد له عندما قدمه إسحاق الموصلى لمجلسه، درس زرياب الموسيقى على إبراهيم الموصلى ثم على ابنه إسحاق الموصلى وقد جدد الكثير فى لموسيقى الأندلسية وفن الغناء وأدخل الكثير من العادات إلى المجتمع الأندلسى، ومن إسهامات زرياب فى مجال الموسيقى أنه أضاف الوتر الخامس إلى آلة العود، وهو أول من استخدم الريش فى الضرب على العود، وهو الذى ابتدع القوالب التى بُنيت عليها الموشحات الجديدة بالأندلس، وقد أحدث ثورة فى عالم الأزياء، ومراسم تناول الطعام، وطريقة تصفيف الشعر للرجال والنساء، وجعل لكل فصل من السنة ملابسه الخاصة به، طبقاً لمكانه من الحر أو البرد، فالملابس البيضاء للصيف للمزيد راجع: ابن حيان: المقتبس (تحقيق مكى: الشطر الأول)، ص ٣٠٧ - ٣٣٥ ، نفح: ٣/ ١٢٢ - ١٣٣.

(١) المقتبس: (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ٣٠٧ - ٣٣٥.

(٢) نفسه ، ص ٣٣٦.

(٣) نفسه ، ص ٣٥٠.

وصواب رجمه، ما يطول منه تعجبه، ويكثر من أجله تسآله، فله معه ومع من سمينا من الوزير عبد الرحمن بن يَحْيىَ الأصم، والنعمان بن المنذر وغيرهما من رجالهم، وما لدى أصحابه وغيرهم في هذا الباب نوادر مستغربة [1].

كما أشار إلى أن عبد الرحمن الأوسط أول من اتخذ كاتباً خاصاً له وسار الأمراء والخلفاء من بعده على هذا النظام حتى سقوط الخلافة[2].

ويحوي كتاب المقتبس بين دفتيه أيضاً تراجم عديدة لطبقات الفقهاء الأندلسيين منذ فتح الأندلس وحتى عصره معتمداً على مصادر متعددة، كما رصد لنا ابن حَيَّان انتقال الفتاوى بالأندلس من رأى الأَوْزاعيّ[3]، وأهل الشَّام بالكلية " **فحولت إلى رأى مالك وأهل المدينة. وانتشر رأى مالك بقُرْطُبَة، وعم بلاد الأندلس** " [٤].

ورصد أيضاً مجالس العلم والتعليم بالأندلس، وأخذ العلم على يد الشيوخ والفقهاء[5] ، وأكد على أن الحكم المستنصر قد أمر ب " **تحبيس حوانيت السراجين بسوق قُرْطُبَة على المعلمين الذين قد اتخذهم لتعليم أولاد الضعفاء والمساكين بقُرْطُبَة**" [٦].

وهذا يعني أن الدولة قد تبنت تخصيص مصروفات للمدارس[٧]، والمستعرض

---

(١) نفسه، ص ٣٨٩ - ٤٠٣.

(٢) المقتبس: (تحقيق مكى، الشطر الثانى)، ص ١٧٣.

(٣) هو الإمام الفقيه عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعى وكنيته لأبيه أبو عمرو على عادة بعض العرب بالرغم أن أبنه اسمه محمد، وهو عالِم أهل الشام. ولد بمدينة بعلبك فى عام ٨٨ هـ/ ٧٠٧م. لقب بالأوزاعى نسبة إلى محلة الأوزاع وهى قرية خارج باب الفراديس من قرى دمشق إلى أن أصلة نسبة يعود إلى قبيلة سيبان الحضرمية القحطانية للمزيد راجع، الحازمى: عجالة المبتدى وفضالة المنتهى، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢ م، ص ٤٦، طبقات ابن سعد: ٧ / ٤٨٨، طبقات خليفة: ٣١٥، مشاهير علماء الأمصار: ١٨٠، البداية والنهاية: ١٠ / ١٥٥، شذرات الذهب: ١ / ٢٤١.

(٤) المقتبس (تحقيق مكى، الشطر الأول)، ص ١٩٩ - ٢٠١.

(٥) للمزيد راجع، المقتبس (تحقيق الحجى) ص ٢١٦.

(٦) نفسه، ص٢٠٧.

(٧) راجع، Imamudin :1969, Apolitical history of muslim Spain Dacca, p. 176
ويوسف بني ياسين: علم التاريخ، مرجع سابق، ص ٢٥.

لكتاباته يتضح لنا مدى ما وصلت اليه الأندلس من احترام العلماء والفقهاء ورجال الأدب، وكيف أن الأندلسي كان ينفق ما عنده من مال حتى يتعلم ومتى عُرف بالعلم أصبح في مقام التكريم والإجلال ويشير الناس اليه بالبنان[1].

وقد اختلفت منزلة الأشخاص باختلاف سماتهم واتجاهاتهم الشخصية؛ فقد كان منهم طبقة بارزة أسهمت في السياسة العامة للدولة، وظفرت لذلك بالحظوة عند الأمراء[2]، وقد سجل ابن حَيَّان كل ذلك في تاريخه وبدقة بالغة.

مما سبق يتضح لنا أن كتب ابن حَيَّان تناولت وبتفصيل دقيق تاريخ المسلمين في الأندلس سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وثقافياً مما أهله لأن يكون حامل لواء التاريخ في الأندلس.

(١) الشكعة: الأدب الأندلسى، مرجع سابق، ص ٧١.

(٢) سعد شلبي: البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، دار نهضة مصر، ١٩٧٨م، ص ٥٦.

obeikandl.com